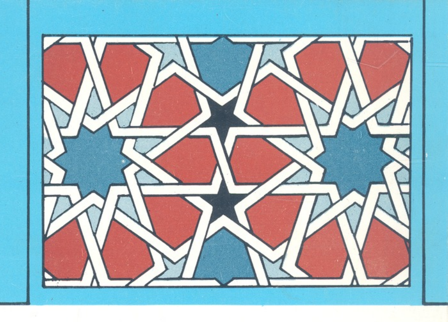


مؤلفات ابن النفيس

علاء الدين علي بن أبي الحرم القرشي

المتوفى ٦٨٧ هجرية

رسالة الأعضاء

مع دراسة حول ابن النفيس ومنهجه وابداعاته

دراسة وتحقيق

دكتور يوسف زيدان



مؤلفات ابن النفيس

علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى

المتوفى ٦٨٧ هجرية



الطبعة الأولى

١٤١١هـ
١٩٩١م



الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥-٣٩٣٦٧٤٣ - برقيا : دار شادو - ص.ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH
PRINTING — PUBLI SHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEX SARWAT St P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 CABLE DARSHADO

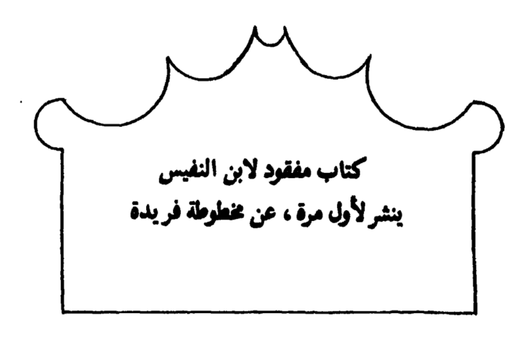


دراسة وتحقيق

دكتور يوسف زيدان

الناشر

الدار المصرية اللبنانية


كتاب مفقود لابن النفيس
ينشر لأول مرة ، عن مخطوطة فريدة

الإهداء :

إلى الإنسان / رجب البنا

أول من استمع لي باهتمام ..

يوسف زيدان

□ تقديم □

يأتى هذا الكتاب ضمن مجموعة مؤلفات ابن النفيس المحقّقة، التى نعكف الآن على إخراجها الواحد تلو الآخر، كمحاولة لإظهار جانب مشرق من التراث العربى، كان قد احتجب لفترة طويلة.

وفى الأعوام القليلة الماضية، شهدت المكتبة العربية اهتماماً بأعمال ابن النفيس، فقام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بإصدار اثنين من هذه المؤلفات (الموجز ـ الرسالة الكاملية) وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط بإصدار (المهذّب فى الكحل المجرَّب) وبجهد فردى قدم الدكتور سلمان قطاية نشرة لا بأس بها لكتاب (شرح تشريح القانون) وقمنا بالاشتراك مع الدكتور/ ماهر عبد القادر محمد بإصدار (شرح فصول أبقراط) مع دراسة ممهدة للنص المحقق.

وسوف نوالى بعون الله استكمال بقية مؤلفات ابن النفيس فى نشرات مُحقَّقة، تسبقها دراسات متنوعة حول ابن النفيس، بحيث تتلو (رسالة الأعضاء) مجموعة أخرى، يصدر منها قريباً: المختصر فى علم الحديث النبوى ـ المختار من الأغذية ـ شرح كليات القانون ـ شرح إبيذيميا أبقراط .. فإذا انتهينا أثناء ذلك من جمع بقية المخطوطات الخاصة بموسوعة ابن النفيس (الشامل فى الصناعة الطبية) وهى الموسوعة التى تقع فى عشرات المخطوطات، فسوف نقوم بتحقيق أجزاء هذه الموسوعة؛ بحسب مشيئة الله، وبقدر ما يطول بنا العمر. وقد قال أبقراط فى بداية الفصول:

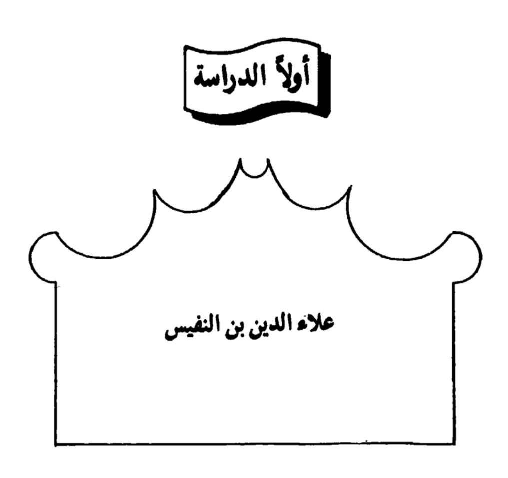
العُمْرُ قَصيرٌ، والصِّناعَةُ طَويلَةٌ!

والـمُطالع لكتب ابن النفيس ، يجد فى نفسه إعجاباً شديداً بهذا الرجل وعبقريته ، فرغم ظروف عصره المتقلّب ، ورغم تنوع فنون المعرفة آنذاك ؛ فقد استطاع أن يبذل جهداً غير عادى لتحصيل علوم عصره ، ولم تقتصر مؤلفاته على الطب الذى نبغ فيه ، وإنما تعدَّت ذلك إلى العديد من العلوم والمعارف الأخرى . وكانت الطرافة والابتكار هى السمة الغالبة على هذه المؤلفات التى تعكس شخصية ابن النفيس ، كعالم موسوعىٍّ هائل .

ولا يسعنى فى هذا التقديم إلا التوجه بالشكر العميق للصديق الأستاذ/ محمد رشاد ـ صاحب ومدير (الدار المصرية اللبنانية) ، الذى اهتم اهتماماً كبيراً بإخراج مؤلفات ابن النفيس خلال هذه السلسلة المحقَّقة التى تصدرها الدار .

والله الموفق ﷺ

دكتور يوسف زيدان
الإسكندرية فى يوليو ١٩٩٠



وَمُسَائِلى هَلْ عَالِمٌ أَوْ فَاضِلٌ
أَوْ ذو مَحَلٍ فى العُلاَ، بَعْدَ العَلاَ

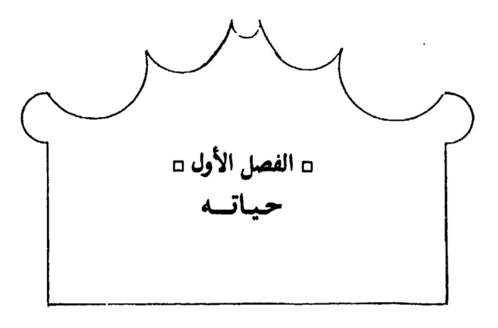
فأَجَبْتُ والنِّيرَانُ تُضرَمُ فى الحَشَا:
أقْصِرْ، فَمُذ مَاتَ العَلاَ مَاتَ العُلاَ

□ تمهيد :

منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام ، كانت لنا وقفةٌ للتعريف بابن النفيس ، وضعناها فى دراسة ممهدة لتحقيقنا لكتابه (شرح فصول أبقراط) وقد كانت هذه الدراسة بمثابة اللقاء الأول لنا مع هذه الشخصية العلمية الفريدة ، ولم نكن بعد قد عكفنا عليه هذا العكوف الطويل .

وعلى الصفحات التالية ، تأتى هذه الدراسة بمثابة (الكتابة الثانية) ؛ إذ اتضحت لنا خلال الأعوام الماضية ، نقاط كانت غامضة ، وأخرى كنا فى غفلةٍ عنها . فكان لابد من إعادة الكتابة عن ابن النفيس ؛ لنستدرك ما فات ونستوضح ما غمض ، ونلقى بذلك مزيداً من الضوء على واحد من أكبر الشخصيات العلمية فى تاريخنا .

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول : يتناول الأول تفاصيل حياة ابن النفيس و بعض الأضواء على عصره وأوقاته ومكانته العلمية . والفصل الثانى نتوقف فيه عند أستاذه مهذَّب الدين الدَّخْوَار ، وعند تلامذته الذين تخرجوا فى الطب على يديه . وأما الفصل الثالث الأخير ، فيدور حول ملامح المنهج العلمى عند ابن النفيس ، وحول بعض الإبداعات التى أدى إليها تطبيق ذلك المنهج عنده ، مع مناقشة أخيرة لمشكلة التشريح عند ابن النفيس .. ولعلنا بذلك نكون قد أسهمنا فى رسم صورة محددة المعالم ، تكشف عن جانب مضىء من تراث العرب العلمى .



◘ الفصل الأول ◘

حيـاتــه

أولاً ـ عصر ابن النفيس :

عاش ابن النفيس فى القرن السابع الهجرى ، حيث عاصر أحداثاً ووقائع لابد من التوقف عندها ، حتى نفهم المزيد من جوانب شخصية هذا الطبيب العلامة ، خاصة أن هذا العصر تميَّز بأمور لم تمرّ بها بلاد الإسلام قبل ذلك ، مما كان له أكبر الأثر فى حياة ابن النفيس ، الذى عاش عصره بمباهجه وويلاته .

فى بداية القرن السابع الهجرى ، كان الأمر فى عاصمة الخلافة الإسلامية (بغداد) قد بلغ غاية السوء ، فانصرف عنها كبار العلماء مبتعدين عن كرسى الخلافة الذى اهتز بقوَّة تحت وطأة الفساد والتقلبات السياسية ، وما لبث أن سقط تمامًا عندما وقعت الطامة الكبرى ، أعنى سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦ هجرية ؛ لينتهى عصر كامل من تاريخ الإسلام .

وكان مشعل الحضارة قد انتقل من بغداد إلى القاهرة ، لتحمله يد الدولة القوية التى أسَّسها صلاح الدين الأيوبى وبسط سلطانها على الشام وما حولها ، وهى الدولة التى ورثها المماليك من بعد .. وتدفقت السيول الجارفة كقطع الليل الأسود ، فمن جهة الشرق تربَّص المغول ببقية الدول الإسلامية ، ومن الشمال توالت الحملات الصليبية ، ومن الجنوب زحفت أطماع ملك النوبة ، أما قلب الدولة (مصر) فكانت تهب عليه رياح الوباء من حين لآخر ، وتعصف به محاولات الاستيلاء على السلطة ، تلك المحاولات التى نراها فى وقائع حياة عز الدين أيبك وشجرة الدُّرِّ ، ومن بعدهما الظاهر بيبرس ، وسيف الدين قطز ، وغيرهما .

واستطاعت مصر أن تلاقى تلك المصادمات وتخرج قوية ، فقد كسرت شوكة المغول فى عين جالوت ، وردت هجوم ملك النوبة جنوباً والصليبيين شمالاً ، وأسرت

لويس التاسع فى المنصورة ، وشفيت من وباء سنة ٦٧١ هـ الفتّاك ، وأقامت العمائر والمساجد والقصور والقلاع .. وصارت القاهرة ؛ حاضرة العالم الإسلامى التى يفد إليها العلماء من كل فن ، فمن الأطباء يفد ابن النفيس ليستقربها ، و يصير بعد حين : رئيس أطباء مصر والشام .

عاش ابن النفيس بالقاهرة وعايش كل ما ذكرناه ، وعانى ما عاناه معاصروه من واقع اجتماعىٍّ مضطرب ، ونزاع سلطوىٍّ لا يهدأ ، ومخاوف وانتصارات .. وكان لذلك كله أثره فى ابن النفيس ؛ كما سنرى .

ثانيًا ـ اسمه ولقبه :

وفقاً لما اتفقت عليه المصادر، فهو: الحكيمُ الأجلُّ ، رئيس الأطباء ، علاء الدين على بن أبى (الحرم) القرشى (١) الدمشقى (٢) المصرى (٣) الشافعى (٤) .. وهنا لنا وقفة مع اسمه ! فقد ذكرنا فى كتابتنا الأولى ، أنه (ابن أبى الحزم) ولم نلتفت لورودها عند ابن كثير(٥) والعُمرى (٦) وابن العِماد (٧) والسُّبكى (٨) ، بلفظ (الحرم) وسايرنا بول غليونجى (٩) حين رجَّح أن تكون نقطة الزاى قد سقطت من (الحزم) فصارت (الحرم) ولكننا وجدنا مخطوطة « رسالة الأعضاء » والتى نُرجِّح أنها بخط ابن النفيس نفسه ، قد ذكر فيها اسمه على أنه (ابن أبى الحرم) وليس (الحزم) ، و بذلك انحسم هذا الخلاف اليسير فى رسم الاسم .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ) ٥ / ٤٠١ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨ م) ٧ / ٣٧٧ .
(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية ـــ بدون تاريخ) ٥ / ١٢٩ .
(٤) عمر كحالة : معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى ـــ بيروت) ٧ / ٥٨ .
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (مطبعة السعادة ـــ القاهرة ، ١٣٥٨ هـ) ١٣ / ٣١٣ .
(٦) العمرى : مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار (مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٩٩ / م تاريخ) ٧ / ٢٢٥ .
(٧) ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ / ٤٠١ .
(٨) السبكى : طبقات الشافعية ، ٥ / ١٢٩ .
(٩) بول غليونجى : ابن النفيس (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـــ أعلام العرب) ، ص ٧٦ .

أما لقب (القرشى) فهو لا يشير كما يبدو لأول وهلة إلى (قُريش) التى عادة ما ينسب إليها القرشيون بضم القاف ؛ ذلك أنها (القَرَشى) بفتح القاف والراء ، نسبة إلى قرية قرب الشام اسمها القَرَشُ ، وهى قريةٌ صغيرة ، لم نر غير ابن النفيس منسوبا إليها ! وقد تنبهنا لذلك مما جاء فى تلك الورقة الساقطة من كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لزميل ابن النفيس ومعاصره : ابن أبى أصيبعة .. وهى الورقة التى خلت منها كل طبعات هذا الكتاب ، حتى إن المشتغلين بتاريخ العلوم العربية ، اندهشوا من عدم ترجمة صاحب «عيون الأنباء» لمعاصره ابن النفس ، وظن ماكس مايرهوف أن ذلك بسبب خلاف كان بينهما ، لكن العثور على هذه الورقة كان فيه بطلان الظنون (١٠) . ومع ذلك فقد تأملتُ هذه الورقة التى عُثر عليها بمخطوطة (عيون الأنباء) المحفوظة بالمكتبة الظاهرية (١١) ، فبدت لى كأنها ملحقٌ مدسوسٌ على الكتاب ، وضعه أحد النساخ المتأخرين .. وهنا يعود السؤال : لماذا لم ترد ترجمة عالم كبير كابن النفيس فى عيون الأنباء ؟ وهنا لن نصدق ظنون ماكس مايرهوف حول الخلاف بين الرجلين ؛ ذلك أن ابن النفيس لم يكن زميلاً لابن أبى أصيبعة لفترة طويلة ، فقد سبقه بسنوات عديدة ، وسافر إلى مصر قبل أن يسير ابن أبى أصيبعة إليها ثم يرحل عنها إلى صَرْخَد . ولعل بُعْدَ الشُّقَّة بينهما هو السبب فى (تغافل) ابن أبى أصيبعة أو غفلته عن الترجمة لابن النفيس ، مع أنه ترجم لبقية تلاميذ أستاذه مهذَّب الدين الدَّخْوَار .. لكن بإمعان النظر فى هؤلاء التلاميذ ، سنرى أنهم جميعًا كانوا بالشام ، وليس بمصر !

من هنا جاء هذا الناسخ المتأخر ، وتدارك النقص فى النسخة الظاهرية ، فذكر ترجمة ابن النفيس ، تلك الترجمة التى لم ترد فى أية مخطوطة أخرى من كتاب عيون الأنباء (١٢) .

---

(١٠) راجع مناقشة د/ غليونجى لهذه القضية ، فى كتابه (ابن النفيس) ، ص ٧٢ ، وما بعدها .

(١١) توجد نسخة فوتوغرافية من هذه الترجمة الفريدة ، بمقدمة فهرس مخطوطات الظاهرية الذى وضعه د/ سامى حمارنه .

(١٢) جاء فى الترجمة الملحقة بنسخة «عيون الأنباء» ما يلى :
«علاء الدين ابن الحرم القَرَشى المتطبب ، القَرَش قرية قرب الشام ، فإنه كان شيخاً فاضلاً كالبحر الخضم والطود الأشم للعلوم ، ولم يكن منفرداً بفن من الفنون ولولم يكن له غير (شرح غوامض القانون) لكفى به دليلاً على غزارته ، فكيف وله مع ذلك تصانيف كثيرة فى جميع الأنواع ، مقبولة عند المحققين فى أكثر البقاع ، مشتملة على حقائق الأنظار ودقائق الأفكار ولطائف الإشارات وطرائف

وأما لقب (المصرى) فقد خُلع على ابن النفيس بحكم الإقامة والهوى ، فقد وفد إلى مصر فى شبابه ، واستمر بالقاهرة ولم يفارقها حتى وفاته . فكان ابن النفيس بهذا مصرياً يعيش واقع مصر و يساهم فى تشكيله بجهوده العلمية ومؤلفاته الطبية ومجلسه الذى كان يجمع كبار أرباب الوظائف والمعارف بالقاهرة آنذاك . وقد بنى ابن النفيس بالقاهرة داراً فرشها بالرخام حتى إيوانها ، حتى إن العمرى يقول « لَمْ أر داراً إيوانها مُرَخَّمٌ غير هذه الدار، ولم يكن متزوجاً .. » وهى إشارة خطيرة سنعود إليها عند الكلام عن التشريح عند ابن النفيس ، عموماً فقد أهدى ابن النفيس هذه الدار، وما كان يملكه من أموال وكتب كثيرة للصرح الطبى الكبير الذى بناه الناصر قلاوون سنة ٦٨٣ هجرية ، وهو: البيمارستان المنصورى بالقاهرة .

وأخيرًا فإن لقب (الشافعى) مستمدٌ من كون ابن النفيس شيخاً من مشايخ الفقه الشافعى فى عصره ، فقد تولى تدريس فقه الشافعية بالمدرسة المسرورية ، وهى المدرسة التى يحدثنا عنها المقريزى فيقول « هذه المدرسة بالقاهرة ، داخل درب شمس الدولة كانت دار شمس الخواص مسرور، أحد خُدَّام القصر، فجُعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته وأن يوقف الفندق الصغير عليها . وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام

= العبارات ، وبخاصة كتابه المسمى بالموجز القانونى وكتاب الشامل الذى ذكر فيه اختلافات مذاهب طوائف العلماء وتفنن معاشر الحكماء فى أصناف العلوم والحكمة ، مع ما هو اللباب والنقادة ، وله كتب كثيرة جليلة ، فله أيضاً شرح الفصول لأبقراط ، وثمار المسائل ، ،كتاب النبات من الأدوية المفردة ، وكتاب مواليد الثلاثة ، وجامع الدقائق فى الطب ، وكتاب الشافى ، ورسالة أوجاع الأطفال » .
ويمكننا أن نقطع بأن هذه الترجمة مدسوسة ، بالأدلة التالية :
أولاً: قوله (فإنه كان..) يدل على أن القائل متأخر زمنا عن ابن النفيس، فإذا كان ابن أبى أصيبعة قد توفى سنة ٦٦٨ هجرية ، يعنى قبل وفاة ابن النفيس بما يقرب من عشرين سنة ، فكيف له أن يقول (فإنه كان..) إذ الأوْلى أن يقول (وهو) كذا وكذا .؟
ثانيًا : ورد بالترجمة إشارة إلى كتاب « الشامل » وهو من المؤلفات التى وضعها ابن النفيس فى أخريات حياته ، وتوفى قبل أن ينتهى من تبييضه .. فكيف يرد ذكره عن مؤرخ مات قبله بزمن طويل .؟
ثالثاً : يختلف أسلوب الترجمة مع أسلوب ابن أبى أصيبعة فى ترجماته لمعاصريه وهذا يتضح من المقارنة السريعة بين هذه الترجمة ، وتلك الترجمات التى وضعها ابن أبى أصيبعة لمعاصريه أمثال شمس الدين الكلى وعماد الدين الدنيسرى .
رابعاً : لا يعقل أن تسقط ترجمة ابن النفيس من جميع مخطوطات (عيون الأنباء) عدا هذه النسخة المحفوظة بالظاهرية . ولا يعقل أن يترجم ابن أبى أصيبعة لابن النفيس دون أن يذكر تلمذته وتخرجه فى الطب على يد الدخوار الذى كان أستاذاً لكليهما .

كانت بيده بيعت بعد موته ، وتولى ذلك القاضى كمال الدين خضر ودرّس فيها .
وكان مسرور ممن اختُصَّ بالسلطان صلاح الدين .. وله برٌّ وإحسانٌ معروف ، ومن آثاره بالقاهرة ذلك الفندق الذى يعرف اليوم بخان مسرور الصفدى ، وله ربع بالشارع» (١٣) .

ولم يقتصر جهد ابن النفيس فى الفقه الشافعى على التدريس فحسب ، بل تعداه إلى التأليف ، فنراه قد وضع شرحاً على واحد من أهم كتب الفقه الشافعى ، هو كتاب (التنبيه) للشيرازى .. وقد ظهر انتماء ابن النفيس للمذهب الشافعى فى مؤلَّف له بعنوان : المختصر فى علم الحديث النبوى . حيث نراه كثير الإشارة إلى آراء الشافعى والشافعية ؛ ولهذا ذكره السُّبكى ضمن كبار الشافعية الذين ترجم لهم فى كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) فأورد ترجمته وأثنى عليه (١٤) .

ثالثاً ـ أوقاتــه :

عاش ابن النفيسَ ثمانين سنة ، فقد كان مولده سنة ٦٠٧ هجرية (١٢٠٨ ميلادية) وكانت وفاته يوم الجمعة ، الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٧ هجرية = ١٢٨٨ م .

وولد ابن النفيس بالشام ، فى هذه القرية التى ذكرناها ، و يبدو أن أسرته هناك لم تكن من الأسر المشهورة ، فلا تذكر المصادر شيئاً عن أهله أو أحد أفراد أسرته ، بل إن لقب (القَرَشى) هذا ، يكاد ابن النفيس ينفرد به ؛ مما يعطى إحساساً بأنه لم يولد فى أسرة غير معروفة فحسب ، بل وفى بلدة غير معروفة أيضاً .

ونزل ابن النفيس إلى دمشق ، وهناك تلقى علوم الطب على يد اثنين من كبار الأطباء ؛ الأول : عُمْران الإسرائيلى المتوفى ٦٣٧ هجرية ، والآخر : مهذّب الدين الدَّخْوَار.. الذى سنتحدث عنه بعد ذلك بالتفصيل .

وفى كتابه المخطوط (شرح كليات القانون) يقصُّ ابن النفيس علينا قصة طريفة

---

(١٣) المقريزى : الخطط ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠ هـ) ، ٣ / ٣٤٠ .

(١٤) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ٥ / ١٢٩ .

تؤرخ لدخوله ميدان الطب ، والدافع إلى اشتغاله بالصناعة الطبية .. يقول ابن النفيس :

« كان قد عَرَض لنا حميات مُختلفة استمرت بنا مدة طويلة ، وعَرَض لنا من ذلك ، استسقاء طُبلى (١٥) ، حتى آيس منا جميع الأطباء والعوّاد ، وغلب ظننا قرب المفارقة ، فأعرضنا عن مشورات الأطباء ، وآثرنا الاجتماع بالزهّاد والفقراء (١٦) ، حتى كان يجتمع عندنا منهم جماعة فى الليل ، يشتغلون بتلاوة القرآن وإنشاد الشعر بالأنغام اللذيذة ، فوجدنا فى أول ليلة خفة ؛ حملنا ذلك على سوء الظنّ بمن كان يعودنا من الأطباء ، حتى اجتهدنا فى مضادة ما كانوا يشيرون به ، حقاً كان أو باطلاً ، حتى كُنَّا ندخل الطعام على الطعام ، ونكثر من الأنواع المختلفة من الأغذية ، وخصوصاً الغليظة ، ونستعمل الفاكهة بعد تلك الأغذية ، وما شابه ذلك من التدابير التى لا تجوّزها الأطباء . وألزمنا مخالطة أولئك القوم ، والالتذاذ بأحوالهم ، فما مضى علينا قريبٌ من عشرين يوماً ، إلاَّ و بدننا فى غاية الصحة . وكان سننا فى ذلك الزمان قريباً من اثنتين وعشرين سنة . ومن حين عوفينا من تلك المرضة ، حملنا سوء ظننا بأولئك الأطباء ، على الاشتغال بصناعة الطب ؛ لننفع بها الناس .. » (١٧) .

ومن هذا النص يتضح الإطار الدرامى الذى دخل ابن النفيس عالم الطب من خلاله ، كما يتضح السرور وراء إخلاص ابن النفيس الشديد لهذا العلم ، وذلك الإخلاص الذى كان وراء نبوغه كطبيب ، كما يتضح هذا الميل القلبى لدى ابن النفيس لروح التصوف والتدين ، وهو ما ظهر بعد ذلك فى اشتغاله بالفقه وعلوم الدين .. لكن النص يثير إشكالاً كبيرًا ! فإذا كان ابن النفيس قد شرع فى الاشتغال بالطب وهو فى الثانية والعشرين ، وإذا كان مولده سنة ٦٠٧ هجرية ، فذلك يعنى أنه بدأ دراسته الطبية سنة ٦٢٩ هجرية . فكيف يتفق ذلك مع ما أجمعت عليه المصادر من أنه تعلم الطب على يد الدَّخْوار ، المتوفى ٦٢٨ هجرية ؟

---

(١٥) الاستسقاء الطبلى : أحد الأنواع الثلاثة التى عرفها أطباء المسلمين من الاستسقاء (الزقى ــ اللحمى ــ الطبلى) وسُمى بذلك لأن البطن فيه تصدر عند النقر عليه باليد ، صوتاً يشبه صوت الطبل .

(١٦) تُشير كلمة (الفقراء) إلى جماعة الصوفية .

(١٧) ابن النفيس : شرح كليات القانون (مخطوط مكتبة برلين رقم ٩٠ إم إف ٦٢٧٣) ورقة ١٢٤ ب .

و يبدو أن قول ابن النفيس « حملنا سوء الظن بأولئك الأطباء ، على الاشتغال بصناعة الطب » يُراد به ممارسة الطب ، وليس تعلمه . مما يعنى أنه كان قد سبق له أن تعلم الطب على الدَّخْوَار ، ثم لم يمارسه حتى وقعت له هذه الواقعة .. خاصة وأن ابن النفيس قد حكى هذه الواقعة فى معرض حديثه عن أثر « حسد » المحيطين بالإنسان ، وكأنه يُرجع سبب مرضه إلى حسد زملائه من الأطباء له ، وعدم إخلاصهم فى علاجه !

واشتغل ابن النفيس فى ابتداء الأمر كحالاً (طبيب عيون) كأستاذه الدَّخْوَار ، و يبدو أنه بلغ قدرًا كبيرًا من المهارة فى هذا الفن ، كما يظهر من كتابين له فى طب العيون ، هما : المهذَّب فى الكُحل المجرَّب ــ مفتاح الشفاء فى العين (١٨) .

لكن ابن النفيس لم يقتصر فى الطب على الكحالة ومداواة العيون ، بل درس بقية التخصصات الطبية المتاحة آنذاك . وكانت بداية ممارسته الطب بشكل عام فى دمشق ، و بالتحديد فى مستشفاها الكبير (البيمارستان النورى) وهو يحكى حكاية أخرى طريفة ، شاهدها هناك ، فيقول :

« قد كان فى بيمارستان دمشق شخصٌ مقعدٌ ، فلما آيس الأطباء من علاج حاله ، وطال مقامه فى البيمارستان ، صرفوه . و بقى فى بعض الأسواق يستعطى الصدقة مدة سنين ، ثم اتفق له فى بعض الليالى أن شاهد أفعى تدنو منه ، فاستغاث بالناس ، فلم يكن هناك مَنْ يغيثه ، فلما قربت منه ، واشتد به الفزع ، عدا هارباً ، وتحلَّل ما كان فى مفاصله .. وقويت رجلاه ، واستمر على الصلاح » (١٩) .

وهكذا بدأ ابن النفيس حياته العلمية والعملية بدمشق ؛ ثم جاء إلى القاهرة ، واشتغل بصناعة الطب فى أكبر مستشفياتها آنذاك ، البيمارستان الناصرى ، الذى أسَّسه الناصر صلاح الدين . و بزغ نجم ابن النفيس فى القاهرة ، كطبيب وفقيه ومحدِّث ومنطقىٍّ ونحوىٍّ : ففى الطب ارتقى حتى صار (رئيس أطباء مصر والشام) واشتهر حتى قيل فى حقه إنه : لم يكن فى الطب على وجه الأرض مثله ، ولا جاء بعد

---

(١٨) هناك طبعة محققة من كتاب (المهذب) أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بتحقيق د/ محمد ظافر الوفائى ، د/ محمد رواس قلعة جى .. أما (مفتاح الشفاء) فنحن نعد له الآن تحقيقاً ، معتمدين على نسخة فريدة ، ونأمل أن يصدر قريبًا ضمن سلسلة مؤلفات ابن النفيس .

(١٩) شرح كليات القانون (مخطوط برلين) ورقة ١٢٣ ب .

ابن سينا مثله ، وكان فى العلاج أعظم من ابن سينا (٢٠) . وفى الفقه شهد له شرحه الذى وصفه المؤرخون بأنه كان : شرحا حسنا (٢١) . وفى الحديث النبوى يشهد له كتابه : المختصر فى علم الحديث .. وفى الجملة ، فتنوع معارف ابن النفيس تدل عليها هذه الحكاية التى يوردها العُمرى فى (مسالك الأبصار) على لسان تلميذ ابن النفيس ، السديد الدمياطى ، الذى يقول :

« اجتمع ابن النفيس فى ليلة مع القاضى جمال الدين بن واصل ، وأنا نائمٌ عندهما ، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة ، شرعا فى البحث وانتقلا من علم إلى علم ، والشيخ علاء الدين يبحث برياضة ولا انزعاج ، وأما القاضى جمال الدين فإنه ينزعج و يعلو صوته ، وتحمر عيناه ، وتنتفخ عروق رقبته ؛ ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح ، فلما انفصل الحال ، قال القاضى جمال الدين :

يَا شَيْخ عَلاء الدِّين ، أمَّا نَحْنُ فَعِنْدَنَا مسائلٌ ونُكَتٌ وقواعد ، وأمَّا أنْتَ فَعِنْدَكَ خَزَائِنُ عُلُوم .

و يبدو أن ابن النفيس ــ فى النصف الثانى من حياته ــ صار واحداً من كبار الشخصيات بالقاهرة ، فقد وصف المؤرخون مجلسه اليومى فى داره المرخَّمة ، وكيف كان المجلس يحتشد بكبار رجال الدولة وكبار العلماء من كل فن .. والراجح أنه ارتبط بصداقات عميقة مع العديد من الشخصيات البارزة آنذاك ، فها هو يُهدى (رسالة الأعضاء) لأحد أصدقائه من كبار رجال الحكم ، هو : الأمير حسام الدين خليل أمير المؤمنين (٢٢) .

ولما كان اليوم السادس عشر من ذى القعدة سنة ٦٨٧ هجرية ، وكان يوم سبت ، أصيب ابن النفيس بمرض شديد ، فلم يقو جسده المنهك بالأعوام الثمانين والجهد العلمى الخارق ومروِّعات الزمن .. فلازم الفراش ستة أيام ، ظل فيها الأطباء حوله ينصحونه بتناول شىء من الخمر للتداوى ، وظل يرفض قائلاً : لا ألقى الله وفى باطنى شىء من الخمر! فهل كان ابن النفيس قد شعر بأن أجله قد حان ، وأنه لن

---

(٢٠) انظر: شذرات الذهب ٥/ ٤٠٢ ــ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ١/ ٣٢٩ ــ طبقات الشافعيه ٥/ ١٢٩.

(٢١) مسالك الأبصار، ورقة ٢٢٧.

(٢٢) انظر مقدمة رسالة الأعضاء (النص المحقق).

يعيش حتى السبت المقبل ، وأنه لن يكمل موسوعته الهائلة (الشامل) بعد أن بيّض منها ثمانين مجلداً ، وكان يريد أن تصل للثلاثمائة .. على أية حال ، فإنه عند وفاته ــ يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة ــ كان يعلم بالقطع ، أننا سنعود بعد مئات السنين للحديث عنه وعن مؤلفاته ، فقد نقل عنه المؤرخون قوله : لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى بعدى عشرة آلاف سنة ، ما وضعتها (٢٣) .

رابعاً ـ مؤلفاته :

ترك ابن النفيس مجموعة من المؤلفات التى لا تدانى شهرتها إلاَّ مؤلفات نظيريه : ابن سينا والرازى . وقد تنوعت هذه المؤلفات بين ميادين الطب والفلسفة والمنطق والفقه والحديث والنحو، على نحو يشهد ببراعة ابن النفيس وتعدُّد جوانب عبقريته .. ولما كنا بصدد القيام بحصر ببليوجرافى شامل لمؤلفات ابن النفيس (المطبوعة ــ المخطوطة ــ المجهولة ــ المنحولة ــ المفقودة) ليكون ذلك بمثابة الدراسة الممهدة للنص المحقق من كتابه « المختصر فى علم الحديث » والذى يصدر قريباً فى سلسلة مؤلفات ابن النفيس ؛ فلسوف نقتصر هنا على ذكر تلك القائمة التى أوردناها بمؤلفاته ، فى كتابتنا الأولى عن ابن النفيس ، أعنى تلك الدراسة الممهدة لتحقيقنا لكتاب (شرح فصول أبقراط) وتضم هذه القائمة :

(١) الشامل فى الصناعة الطبية : وسوف نتحدث عنه فيما بعد (مخطوط) .
(٢) موجز القانون : وهو أشهر مؤلفات ابن النفيس ، حظى بشروح كثيرة (مطبوع) .
(٣) المهَّذب فى الكحل المجرَّب : كتاب فى طب العيون (مطبوع) .
(٤) شرح كليات القانون (مخطوط) نعد الآن تحقيقاً له .
(٥) شرح مفردات القانون (مخطوط) .
(٦) شرح تشريح القانون (مطبوع) .
(٧) المختار من الأغذية (مخطوط) انتهينا مؤخراً من تحقيقه ، وهو الآن تحت الطبع .
(٨) تفاسير العلل والأسباب (انفرد بول غليونجى بذكره) .
(٩) مقالة فى النبض (مفقود) .

(٢٣) مسالك الأبصار، ورقة ٢٢٧ .

(١٠) شرح مسائل حنين بن إسحاق (مخطوط) .

(١١) شرح ابيذيميا أبقراط (مخطوط) نعد الآن تحقيقاً له .

(١٢) شرح تقدمة المعرفة لأبقراط (مخطوط) .

(١٣) شرح تشريح جالينوس (مخطوط) .

(١٤) الرسالة الكاملية = فاضل بن ناطق (مطبوع) .

(١٥) طريق الفصاحة (مفقود) .

(١٦) شرح التنبيه للشيرازى (مفقود) .

(١٧) شرح الهداية فى المنطق (مفقود) .

(١٨) شرح الإشارات لابن سينا (مفقود) .

(١٩) بغية الطالبين وحجة المتطببين (مفقود) .

(٢٠) ثمار المسائل (مخطوط) .

(٢١) مواليد الثلاثة (مفقود) .

(٢٢) كتاب النبات من الأدوية المفردة (مفقود) .

(٢٣) جامع الدقائق (مفقود) .

(٢٤) رسالة فى أوجاع الأطفال (مفقود) .

خامساً - مقبرتـه :

خلال شهور ١٩٨٨ ، طالعتنا الصحف المصرية ، ووسائل الإعلام الأخرى ، بسيل من الأخبار عن اكتشاف هيئة الآثار لمقبرة ابن النفيس ، ببلدة (الرحمانية) التابعة لمحافظة البحيرة . وأكدت بعثة الآثار هذا الاكتشاف ، اعتماداً على العبارة المكتوبة على الضريح الموجود بأحد المساجد هناك ، تقول العبارة : « هذا قبر العالم .. ابن النفيس » وبات الأمر كأنه اليقين .

والحقيقة ، فإن لنا على هذا الاكتشاف بعض الشكوك القوية ، رغم كل ما نُشر وأذيع ؛ فالذى نعتقده ، ونثق به ، أن قبر ابن النفيس لابد أن يكون بالقاهرة ، ولا يمكن بحال أن يوجد بالرحمانية [٢٤] .. وذلك لعدة أسباب ، منها :

---

(٢٤) انظر مقالنا المنشور بجريدة الأهرام (الطبعة الدولية) يوم ١٩٨٨/١١/١٤ ، بعنوان : ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية ، مات فى القاهرة .. فلماذا يكتشف قبره فى غيرها ؟!

١ - عند الرجوع إلى المصادر التاريخية الخاصة بابن النفيس ، ومراجعة تفاصيل حياته بمصر ، لا نجد أى ذكر لبلدة الرحمانية ، أو أية إشارة لعلاقة ابن النفيس بها ! بل تُشير المصادر والتفاصيل إلى أن ابن النفيس لم يخرج طيلة حياته الطويلة من القاهرة ، ولم تكن تربطه بغيرها أية روابط .

٢ - كانت وفاة ابن النفيس بعد مرض دام ستة أيام ، ظل خلالها ملازماً داره المفروشة بالرخام ـــ كما يذكر العُمرى ـــ ووقف ابن النفيس هذه الدار ، ومعها أمواله وكتبه ، على البيمارستان المنصورى بالقاهرة .. فكيف يمكن نقله بعد وفاته ، ليدفن فى الرحمانية ؟ الأَوْلى إذن أن يُدفن حيث تُوُفِّى ، وحيث أوقف داره وأمواله وكتبه .

٣ - فى كتاب حُسن المحاضرة ، وضع السيوطى ترجمة لنفسه ، معلِّلا ذلك بقوله : « إنما ذكرت ترجمتى فى هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلى ، فقلَّ أن ألَّف أحدٌ منهم تاريخاً ، إلاَّ وذكر ترجمته فيه .. » (٢٥) وفى ثنايا هذه الترجمة الذاتية ، يشير السيوطى إلى أنه حُمل وهو طفلٌ صغير ، إلى الشيخ محمد المجذوب بجوار المشهد النفيس ، فبارك عليه .
ومن المعروف أن السيوطى وُلد بالقاهرة ، بعدما جاء والده إليها من أسيوط ليستقر ، ومن المعروف أيضاً أنه وُلد بعد ابن النفيس بزمن طويل ! وفى النص السابق ، ربما كان يقصد مشهد السيدة نفيسة ، وربما كان ـــ من ناحية أخرى ـــ يقصد موضعاً منسوباً إلى ابن النفيس .. خاصة أن هناك مواضع أخرى بالقاهرة تحمل اسم ابن النفيس ، منها (عطفة النفيس) الواقعة جهة اليسار من شارع تحت السور ، الذى يبتدئ من نهاية شارع العطارين إلى أول شارع باب القرافة (٢٦) ، وهو موقعٌ شديد القرب من محل إقامة ابن النفيس ، فالأَوْلى أن يُدفن ابن النفيس بواحد من هذه الأماكن ، إن لم يكن قد دفن بالقرافة الكبرى .

٤ - إن وجود ضريح يحمل اسم أحد الأعلام بمكان ما ، لا يعنى بالقطع أن هذا الشخص مدفونٌ فيه . فلقد دأب المصريون قديماً على إقامة عدة أضرحة

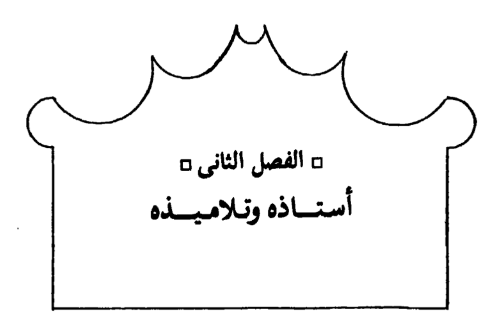
(٢٥) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المجلد الأول ، ص ١٨٨
(٢٦) على مبارك : الخطط التوفيقية ، المجلد الثانى ، ص ٢٩٧ .

٤ـ إن وجود ضريح يحمل اسم أحد الأعلام بمكان ما ، لا يعنى بالقطع أن هذا الشخص مدفون فيه . فلقد دأب المصريون قديماً على إقامة عدة أضرحة للشخصية الواحدة ، خاصة إن كان صاحب هذه الشخصية من كبار علماء وأولياء عصره ـ وقد كان ابن النفيس من كبار علماء الشافعية فى عصره ـ والأمثلة على هذه العادة المصرية عديدة ولا تقع تحت الحصر ، و يكفى أن نذكر مثالاً واحداً عليها ؛ وهو أن المصريين أقاموا لأبى يزيد البسطامى عدة أضرحة موجودة بمساجد تحمل اسمه : منها ضريحٌ ببلدة ساقلته بمحافظة سوهاج ، وضريحٌ آخر ذكرت الخطط المقريزية والخطط التوفيقية أنه يوجد بضرب السايس بشارع الناصرية .. وغير ذلك الكثير ، على الرغم من أن البسطامى مدفونٌ ببسطام ببلاد فارس ، وله قبرٌ ومسجدٌ شهيران هناك . فالأرجح أن يكون بعض مُحبى ابن النفيس ، أو تلامذته ، أو مرضاه ، قد أقام هذا الضريح بالرحمانية للتبرك وإظهار المودة طبقاً لهذه العادية المصرية .

٥ـ هناك العديد من كبار الأطباء ، حملوا بعد ابن النفيس لقب (النفيس) بحيث لم يعد هذا اللقب مقصوراً عليه . وقد ترجم الدكتور أحمد عيسى فى معجمه لبعضهم فذكر منهم : نفيس بن عوض الكرمانى ـ صدر الدين بديع بن نفيس ـ النفيس بن طليب ـ فتح الدين بن معتصم بن نفيس ـ النفيس أبو الفرج بن إسحاق ـ نفيس الدين أبو بكر الدمشقى .. وبهذا يمكن أن يكون شاهد القبر قد قصد واحداً منهم .

وهنا يأتى سؤالٌ ليطرح نفسه : إن لم يكن قبر ابن النفيس هو الذى تم اكتشافه بالرحمانية ، فأين قبره بالقاهرة ، ولماذا لم يشتهر أمره ؟

والإجابة عن هذا السؤال تستمدُّ من تفاصيل حياة ابن النفيس نفسه ، فابن النفيس لم يتزوج إطلاقاً ، و بالتالى لم تكن له ذرية تحيى ذكراه بعد وفاته وتهتم بآثاره . ولم يكن له أيضاً ، أى أقارب بالقاهرة . وعائلته بالشام غير معروفة ، ولم تُشر إليها المصادر لتواضعها ؛ ولهذا كله اختفت آثار ابن النفيس الشخصية بعد وفاته ، فى حين ظلت آثاره العلمية تحظى باهتمامنا بعد مئات الأعوام .



◻ الفصل الثانى ◻

أستـــاذه وتـلامـيـــذه

حتى تكتمل اللوحة التى نحاول رسمها لابن النفيس هنا ، فلابد من الحديث عن سابقه ولاحقيه ، أعنى أستاذه الدَّخْوَار ، والتلاميذ الذين تلقوا العلم عنه . ذلك أن ابن النفيس تأثر بأستاذه كثيراً ، ثم أثر بدوره فى هؤلاء التلاميذ الذين تخرجوا فى الطب على يديه ، ولسوف نرى أن الحديث عن الدَّخْوَار وابن النفيس وتلاميذه ، هو حديثٌ عن ثلاثة أجيال مهمة ، تعاقبت منذ القرن السادس حتى الثامن الهجرى ، فكانت مرحلة كبرى من مراحل تاريخ العلوم العربية .

أولاً : مهذّب الدين الدَّخْوَار

هو : مهذّب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد الدَّخْوَار ... رئيس أطباء عصره ، وُلد ٥٦٥ وتُوفى ٦٢٨ هجرية ، وبين المولد والوفاة كانت حياته وأوقاته نموذجاً للعالم المسلم .

وقد حاولنا البحث عن دلالة لهذا اللقب (الدَّخْوَار) فلم نقف له على معنى محدد ، فلا يضم معجم البلدان موضعاً يمكن أن يُنسب إليه ملقبٌ بالدَّخْوَار(١) ، ولا تسمح اللغة العربية باشتقاق له .. فالدَّخَرُ فى اللغة : التحيُّر ! والداخر هو الذليل المُهان (٢) ، ومن معانى الدخر أيضاً : الصَّغَار والخضوع لله (٣) . وكل ذلك يصعب ـ لغويًا ـ اشتقاق لقب الدَّخْوَار منه .. فالأرجح أن تكون الكلمة فارسية ، غلبت كلقب على واحد من أجداده المتقدمين ، فورثها عنه .

---

(١) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى (دار صادر ـ بيروت) المجلد الثانى .
(٢) الزبيدى : التكملة والذيل والصلة (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) المجلد الثانى ، ص ٥١٨ .
(٣) ابن منظور : لسان العرب (دار لسان العرب ـ بيروت) المجلد الأول ، ص ٩٥٥

بدأ مهذّب الدين الدَّخْوار حياته العلمية بدراسة الكحالة (طب العيون) على يد والده على بن حامد ، الكحال المشهور ، ومارس مهذّب الدين هذا اللون من الطب فى شبابه المبكر. لكنه استضيق هذا المجال فضى إلى ميادين أرحب ، فبدأ يجمع بين الكحالة وعلم اللغة ، وتلقى العلوم العربية على يد أبى اليمن تاج الدين الكندى .. ثم بدأ يشتغل بنسخ الكتب وملازمة الاطلاع ، حتى بلغ ما كتبه بخطه ـــ وفقاً لشهادة ابن أبى أصيبعة ـــ أكثر من مائة مجلد فى سائر العلوم (٤).

وتلقى الدخوار المعرفة الطبية العامة على يد ثلاثة من مشاهير الأطباء ، فدرس أولاً على يد رضى الدين الرَّحْبى (٥٣٤ ـــ ٦٣١ هجرية) حيث قرأ عليه كتاب « الملكى فى الصناعة الطبية » لعلى بن العباس المجوسى (٥) ، وتعلم منه طرق العلاج وخفايا المعالجات (٦) . ثم لازم الدَّخْوار: موفق الدين بن المُطْران ، وفخر الدين الماردينى ، وكانا أشهر الأطباء فى ذلك الوقت ، فتعلم منهما المزيد من أمر العلاج ، وقرأ على المردينى كتاب القانون لابن سينا .. وبدأ الدَّخْوار يتخلى عن عمله كطبيب للعيون فى البيمارستان الكبير بدمشق ، وحصل على راتب شهرى (جامكية) ليمارس الطب العام ، ووجد عنده الفرصة للإحاطة ببعض العلوم الأخرى فى أوقات الفراغ .

بدأ الدخوار فى دراسة الهيئة (علم الفلك) على يد أبى الفضل الإسرائيلى المنجم ، واقتنى فى داره من الآلات النحاسية ورسائل علم الفلك شيئاً كثيراً لا يوجد عند غيره من المعاصرين له .. وكان الدخوار شغوفاً بالرياضة والمنطق ، وكانت له جلسات نقاش موسعة مع أشهر أعلام المنطق فى عصره : سيف الدين الآمدى ، المتوفى ٦٣١ هجرية .. ويبدو أن شغف الدَّخْوار بالمنطق والفلسفة كان كبيراً ، فها هو يستخدم مصطلحات (الجوهر ـــ الأعراض) استخداماً متوالياً فى رقعة شعرية أرسل بها إلى صديقه المريض رشيد الدين بن على ، يقول الدخوار (من الكامل):

يَا مَنْ أُؤَمِّلُهُ لِكُلِّ مُلِمَّةٍ ... وَأَخَافُ إِنْ حَدَثَتْ لَهُ أَعْرَاضُ
حُوشِيتَ مِنْ مَرَضٍ تُعَادُ لأَجْلِهِ ... وَبَقِيتَ مَا بَقِيَتْ لَنَا أَغْرَاضُ
إِنَّا نُعِدُّكَ جَوْهَرًا فى عَصْرِنَا ... وَسِوَاكَ إِنْ عُدُّوا فَهُمْ أَعْرَاضُ

---

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (مكتبة الحياة ـــ بيروت) ، ص ٧٢٨ .
(٥) المرجع السابق ، وقد ورد اسم الكتاب (المكى) بدلاً من الملكى ؛ والأخير هو الصواب .
(٦) الذهبى : سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة) مجلد ٢٢ ، ص ٣١٧ .

وخدم الدَّخْوَار بعد ذلك عدة ملوك ووزراء ، حتى انتهى إلى الإشراف على البيمارستان الكبير ، والتدريس لطلاب الطب .. يحكى لنا تلميذه (ابن أبى أصيبعة) برنامجه اليومى فيقول : كان الشيخ مهذَّب الدين إذا تفرغ من البيمارستان ، وتفقَّد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها ، يأتى إلى داره ، ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة ونسخ الكتب ، فإذا فرغ من ذلك أذن للطلاب فيدخلون إليه قوماً بعد قوم ، فيقرأ كل منهم درسه ، وهو يراجع على الكتب التى نسخها بخطه ، وكان لا يفارقه ما يحتاج إليه من مراجع ، خاصة كتاب « الصِّحَاح » للجوهرى و « الـمُجْمل » لابن فارس و « النبات » لأبى حنيفة الدينورى .. فإذا فرغت الجماعة ، يعود لنفسه فيأكل شيئاً ، ثم يشرع بقية نهاره وأكثر ليله فى المطالعة (٧) .

وكسائر العلماء المجتهدين البارزين فى كل عصر ، ابتلى الدخوار بالحسَّاد والحاقدين ، وكان أكثرهم شاعرا يسمى (ابن خروف) ظل يهجو الدَّخْوَار بأبيات ساقطة ، وهو يحتملها بصبر العلماء ، حتى ابتلعت الأرض ابن خروف .. فقد ذهب هذا الشاعر يرتزق بمدح الملك الظاهر بن صلاح الدين ، فلما فرغ من المدح رجع القهقرى إلى الخلف ، وكان هناك بئرٌ فوقع فيها ومات !

يقول شهاب الدين الشاغورى وهو يمدح الدَّخْوَار و يُعدِّد مناقبه (من البسيط) :

يَا جَامِعاً حَسَباً عَدَا إلى أدَب   جَمٌّ ، عَلِمْتَ أمراً فى الجُود يَحْكِيكَا

شَوَتْ كُلَى ابْنِ خَرُوف نَارُ سَعْيِكَ إِذْ   دَعَا به نَحْسُهُ يوما لِيَهْجُوكَا

وكانت سيرة الدَّخْوَار مخبرة عن الجانب الأخلاقى فى نشاطه كطبيب ، فقد رُوى عنه معالجة المرضى احتساباً دون أجر ، ومعاونة المنكوبين من أصحابه ، وترفقه بتلاميذه ومساعدتهم ... وقد ورد العديد من الشواهد على ذلك فى ترجمات الدَّخْوَار بالمصادر التاريخية ، خاصة (عيون الأنباء) لابن أبى أصيبعة .

وكتب الدَّخْوَار العديد من المؤلفات ، إلى جانب بعض المختصرات .. فمن مؤلفاته : كتاب الجنينة فى الطب ، شرح تقدمة المعرفة لأبقراط ، مقالة فى الاستفراغ ، تعاليق ومسائل طبية ، مقالة فى ترتيب الأغذية ، الرد على شرح النيسابورى لمسائل حنين . ومن مختصراته : مختصر كتاب « الحاوى » لأبى بكر الرازى ، مختصر كتاب

---

(٧) عيون الأنباء ، ص ٧٣٢ .

« الأغانى » للأصفهانى (٨) .. ولا تزال هذه المؤلفات جميعاً ، مخطوطات لم تمتد إليها يد المحققين والدارسين حتى اليوم (٩) .

وبدأت نهاية الدَّخْوار فى ذى القعدة سنة ٦٢٢ هجرية ، فقد توجه فى ذلك الشهر لخدمة الملك الأشرف بشرق الشام ، وعرض له ثقلٌ فى لسانه ، عاقه عن الاسترسال فى الكلام ؛ وحين رجع إلى دمشق ، ظلت هذه الآفة تستعصى عليه شيئاً فشيئاً ، فتمنعه من التدريس لتلاميذه ، فكان يكتب لهم فى لوح فينظرون إليه .. ولما اشتدت عليه العلة ، اجتهد فى علاج نفسه بأقوى الأدوية أثراً ، واستعمل المعاجين الحارة ، فعرضت له حمى شديدة ، وتوالت عليه الأمراض حتى سكت عن الكلام شهراً ، ثم توفى فى الرابع عشر من صفر سنة ٦٢٨ هجرية ، ودفن بجبل قاسيون بدمشق (١٠) .

ولم يخلف الدَّخْوار أولاداً ، بل إنه لم يتزوج أصلاً .. إذ يبدو أن حياة العلم لم تترك من أوقاته بقية لحظوظ نفسه ! لكن الدَّخْوار خلف مالاً كثيراً يعدُّ بألوف الدنانير، كما خلف داراً كبيرة بدمشق ، فأوقف ذلك كله للطب والأطباء .. يقول النُّعيمى (١١) فى بداية تأريخه لمدارس الطب بدمشق : « المدرسة الدَّخْوارية بالصاغة العتيقة قبلى الجامع الأموى .. وجدتُ فيها وقفاً مؤرخاً بسنة عشرين وثمانمائة » (١٢) ، وذلك يعنى أن المدرسة ظلت عامرة بعد الدَّخْوار بمئات السنين . وقد زاد ابن أبى أصيبعة من معلوماتنا عن المدرسة الدَّخْوارية حين قال : « ولما كان فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة قبل سفر الشيخ مهذَّب الدين إلى الملك الأشرف وخدمته له ، وقف داره بدمشق ــ شرقى سوق المناخليين ــ وجعلها مدرسة تدرَّس فيها من بعده صناعة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن ، ليُستغل ما ينصرف فى مصالحها وفى جامكية المُدرِّس وجامكية المشتغلين بها ، ووصى أن يكون المُدرِّس

---

(٨) انظر: الأعلام ٥ / ٢٠٩ ــ كشف الظنون ١٤١٠ ــ معجم المؤلفين ٥ / ٢٠٩ ــ عيون الأنباء ٧٣٦ ــ شذرات الذهب ٥ / ١٢٨ .

(٩) يقوم الدكتور ماهر عبد القادر محمد ، بإعداد تحقيق لشرح الدخوار على تقدمة المعرفة ، وسوف يقوم قريباً بنشره مع مقدمة وافية .

(١٠) سير أعلام النبلاء ٣١٧/٢٢ ــ عيون الأنباء ، ص ٧٣٣ ــ شذرات الذهب ١٢٨/٥ .

(١١) هو محيى الدين عبد القادر بن محمد النُّعيمى الدمشقى ، وُلد ٨٤٥ ، وتوفى فى جُمادى الأولى سنة ٩٢٧ هجرية .

(١٢) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ١٢٧/٢ ، ١٣٣ .

فيها : الحكيم شرف الدين بن علي بن الرّحْبي ، وابتُدىء بالصلاة في هذه المدرسة يوم الجمعة ، صلاة العصر ، ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة [١٣] .

وقد نقل الدكتور أحمد عيسى من مخطوطة (تنبيه الطالب وإرشاد الدارس عما كان في دمشق من المدارس) هذا النص ، ووضعه تحت عنوان (افتتاح المدرسة الدَّخْوَارية) .. يقول النص :

« لما كان في يوم الأثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هجرية (١٨ فبراير سنة ١٢٣٠م) حضر الحكيم موفق الدين عبد العزيز والقاضي شمس الدين الخواتيمي ، والقاضي جمال الدين الخرستاني ، والقاضي عز الدين السنجاري ، وجماعة من الفقهاء والحكماء .. وشرع الحكيم شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي ، في التدريس بها في صناعة الطب ، واستمر على ذلك ، وبقي سنين عدة .. ثم صار المُدرِّس فيها فيما بعد الحكيم بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك ، وذلك أنه لما ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مدود بن الملك العادل ، كتب للحكيم بدر الدين بن قاضي بعلبك ، منشوراً برياسته على سائر الحكماء في صناعة الطب ، وأن يكون مدرساً للطب في مدرسة الحكيم .. الدَّخْوَار ، وتولى ذلك في يوم الأربعاء ، رابع صفر سنة ٦٧٧ هجرية ، ثم درّس بعده عماد الدين الدُّنَيْسَرِي ، ومحمد بن عبد الرحيم بن مُسْلمة كمال الدين المتوفى سنة ٦٩٧ هجرية (١٢٩٧م) والجمال المحقق أحمد بن عبد الله بن الحسين الأشقر ، وقد ولي مشيخة الدَّخْوَارية وتوفي سنة ٦٩٤ هجرية (١٢٩٤م) ، وأمين الدين سليمان بن داود الدمشقي ، توفي سنة ٧٢٢ هجرية ، ثم شهاب الدين الكحّال ، توفي سنة ٧٣٢ هجرية [١٤] .

وإذا أطلقنا على الدَّخْوَار (أكبر مدرسة طبية في الإسلام) [١٥] فنحن لا نعني تلك الدار التي جعلها مدرسة للطب من بعده ، وإنما نقصد الدَّخْوَار ذاته ، باعتباره أستاذ أكبر مجموعة من مشاهير أطباء القرن السابع الهجري ، بل إننا لا نجد طبيباً

---

(١٣) عيون الأنباء ، ص ٧٣٣ .

(١٤) د/ أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام (دار الرائد العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م) ص ٤٠ ، ٤١ .

(١٥) انظر مقالنا المنشور بمجلة الفيصل تحت عنوان : الدَّخْوَار ، أكبر مدرسة طبية في الإسلام .

مرموقاً فى هذا القرن إلا وهو من تلاميذ الدَّخْوَار! ولهذا وُصف الدخوار فى معجم الأطباء بأنه : كان مُنْجبا (١٦) .. فقد أنجب الرجل من الأطباء ما لم ينجبه واحدٌ من مشاهير الطب العربى ، بما فيهم الرازى وابن سينا . فلنتوقف عند هؤلاء وقفات :

[١] ابن النفيس :

من الطبيعى أن يُذكر ابن النفيس على رأس قائمة تلاميذ الدَّخْوَار ، فهو أشهر هؤلاء التلامذة على الإطلاق . لكننا خصَّصنا فصول هذه الدراسة للحديث عن ابن النفيس بشكل عام ، فبقى هنا أن نذكر فقط ، بعض مظاهر تأثر ابن النفيس بأستاذه الدَّخْوَار ، وهو ما يمكن تلخيصه فى النقاط التالية : اشتغل ابن النفيس بالكحالة فى بدايته كما فعل الدَّخْوَار ، ثم تفرَّع فى تخصصات الطب ـــ تناول ابن النفيس العديد من القضايا الطبية التى طرحها الدَّخْوَار ، ووضع شرحاً على (تقدمة المعرفة) وهو الكتاب الأبقراطى الذى شرحه الدَّخْوَار من قبله ـــ ورث ابن النفيس عن أستاذه ذلك التقدير العميق لأبقراط ، وذلك ما يظهر بوضوح فى مؤلفات ابن النفيس ـــ أخذ ابن النفيس الطابع الموسوعى من الدَّخْوَار ، فلم يقتصر على الطب ، وإنما اشتغل بغير ذلك من العلوم كما اشتغل الدخوار ـــ اقتدى ابن النفيس بالدَّخْوَار حتى فى السيرة الشخصية ، فلم يتزوج ، وأوقف داره وأمواله الكثيرة على البيمارستان المنصورى . بالقاهرة ، كما أوقف الدخوار داره وأمواله على مدرسته بدمشق .

[٢] ابن قاضى بعلبك :

هو بدر الدين المظفَّر بن عبد الرحمن بن إبراهيم ، كان والده قاضياً ببعلبك ، ونشأ هو بدمشق . بدأ تعلم الطب على يد الدَّخْوَار فأتقنه فى أسرع وقت ، وكان الدخوار معجبًا باجتهاده وحفظه التام للمراجع الطبية ، فكان يُقرِّبه إليه و يواظب معه على القراءة والدرس .

وصحب ابن قاضى بعلبك أستاذه الدَّخْوَار فى رحلته لخدمة الملك الأشرف بشرقى دمشق ، كى يواصل التعلم على يديه .. وظل على مواظبته الدرس والتحصيل ، واجتهد فى علم الكحالة الذى تعلَّمه من الدَّخْوَار حتى صار بعد وفاة أستاذه رئيسًا للكحالين ، ثم تولى بعد ذلك رئاسة جميع أطباء الشام .

---

(١٦) د/ أحمد عيسى : معجم الأطباء (دار الرائد العربى ـــ بيروت) ص ٢٩٣ .

وأخذ ابن قاضى بعلبك الكثير من صفات أستاذه ، فقد توسع مثله فى الجمع بين الطب والعلوم الأخرى ، كما اهتم بخدمة دور العلاج .. وهى صفات رأيناها من قبله فى أستاذه . يقول صاحب «عيون الأنباء» عن ابن قاضى بعلبك : مما وجدته من صنعه وآثاره الحسنة التى تبقى مدى الأيام ، أنه لم يزل مجهداً حتى اشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير ، وتعب فى ذلك تعباً كثيراً و اجتهد بنفسه وماله ، حتى ضمَّ الدور المشتراة إلى البيمارستان ، وكَبَّر بها قاعات للمرضى كانت صغيرة ، فتكمَّل بها البيمارستان (١٧) .

وقد بدا الخط الدَّخْوَارى واضحاً فى إسهامات ابن القاضى العلمية ، فقد ترك كأستاذه مؤلفات تجمع بين الطب وعلوم العصر ، واهتم بقانون ابن سينا كما اهتم الدخوار ، وتولى التدريس بالمدرسة الدخوارية منذ وفاة مؤسسها .. حتى وفاته هو فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى .

[٣] ابن أبى أصيبعة :

هو موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة السَّعْدى (وُلد ٦٠٠ وتوفى ٦٦٨ هجرية) صاحب أكبر موسوعة تاريخية فى تراجم الأطباء ، حيث ضمَّ فيها ما يزيد على ٤٠٠ ترجمة وافية لأطباء المسلمين ، ومن قبلهم أطباء اليونان والفرس . ومع أنه كان مسبوقاً بجهود بعض العلماء فى هذا الميدان ، أمثال ابن جُلْجُل وابن القفطى والشهرزورى ، إلا أن موسوعته (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) كانت باعتراف كافة المشتغلين بتاريخ الطب : أفضل ما كتب فى هذا الفن .

وفى عيون الأنباء يبدأ ابن أبى أصيبعة ترجمة الدَّخْوَار بقوله :

« هو شيخنا الإمام الصدر الكبير مهذب الدين .... ولاَّه السلطان الكبير فى ذلك الوقت رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام ، وأقمت أنا بدمشق لأجل القراءة عليه ، فبقيتُ أتردَّدُ إليه مع الجماعة ، فكان خبيراً بكل ما يُقرأ عليه ، طلق اللسان جيد البحث حسن التأدية ؛ ولازمته أيضاً فى وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان ، فتدرَّبت معه فى ذلك الوقت و باشرت أعمال صناعة الطب » (١٨) .

---

(١٧) عيون الأنباء ، ص ٧٢٩ .
(١٨) عيون الأنباء ، ص ٧٣١ .

وقد تقصّى ابن أبى أصيبعة أخبار أستاذه الدّخْوَار وذكر من أخلاقه ومناقبه ، بما لا يدع زيادة لمستزيد . وقد ظهر فى ترجمة الدّخْوَار فى عيون الأنباء ، قدر التقدير العميق الذى يكنُّه المؤلف لهذه الشخصية الكريمة فى تراثنا العربى .

[٤] شمس الدين الكُلِّى :

وهو الحكيم الأجلُّ : أبوعبد الله محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن أبى المحاسن ؛ كان والده من أهل الأندلس ، جاء إلى دمشق وظلَّ فيها حتى وفاته .. وكان هذا الطبيب صبياً حين نزل والده إلى الشام وأقام بدمشق ، فقرأ على يد الدّخْوَار المراجع الطبية الرئيسية فى عصره ، وأفهمه الدّخْوَار كل أسرار الطب ، حتى أتقنه وحفظ كل مراجعه .. وقد لُقِب بالكُلِّى لأنه كان يحفظ كُلِّيات قانون ابن سينا عن ظهر قلب ، و يستقصى معانيها إلى الغاية ، فعُرف بهذا اللقب .

وظلَّ شمس الدين الكُلِّى يلازم الدخوار ملازمة تامة ، و يباشر أعمال الطبِّ تحت إشرافه ، وعمل طبيباً خاصاً للملك الأشرف ، ثم أشرف على علاج المرضى بالبيمارستان الكبير ، فكان امتداداً حقيقياً لأستاذه .

[٥] السُّوَيْــدى :

هو الحكيم الشهير عزُّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن على بن الأنصارى ، وُلد ٦٠٠ وتوفى ٦٩٠ هجرية .. تنقل فى بدايته بين عدّة علوم ثم درس الطب على يد الدّخْوَار ، فأتقنه و برع فيه .

وقد تولى عز الدين السُّوَيْدِى التدريس بالمدرسة الدّخْوَارية بعد وفاة أستاذه بزمن طويل فقد كان أول المدرسين بها تلميذ الدخوار : شرف الدين الرَّحْبى ، وتلاه : عماد الدين الدُّنَيْسَرى ، كمال الدين السُّوَيْدِى ، أمين الدولة بن داوذ ، وجمال الدين الكحَّال (١٩) .

والظاهر من هذه السلسلة ، أن عز الدين السُّوَيْدِى لم ينقطع للتدريس بمدرسة

---

(١٩) النّعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ص ١٣٠ وما بعدها .

أستاذه ، وإنما كان يختلف إليها أحياناً عند الفراغ من عمله بالبيمارستان الكبير.. وقد قامت شهرة عز الدين السُّوَيْدى على كتابه الطبى الشهير: التذكرة (٢٠) .

و بعد .. فهناك العديد من تلامذة الدَّخْوَار الآخرين ، الذين أخرجتهم هذه المدرسة الطبية الكبرى ، منهم موفق الدين عبد السلام ، ونجم الدين بن المنفاخ ، وغيرهما من كبار الأطباء .

.. وهكذا تبدو عظمة ابن النفيس ، وكأنها موروثة من أستاذه .

ولننتقل الآن من الكلام عن تلاميذ الدَّخْوَار، إلى تلاميذ تلميذه الأشهر.

ثانياً: تلاميذ ابن النفيس

كما كان الدَّخْوَار منجباً ، كان ابن النفيس . فقد تخرَّج على يد ابن النفيس جماعة من كبار أطباء العصر ، بحيث تواصلت الأجيال تواصلاً علمياً .. ومن تلاميذ ابن النفيس نذكر:

[١] ابن القُفّ :

هو الطبيب المشهور، أمين الدولة ، أبوالفرج يعقوب بن إسحاق بن القُفّ ، وقد كان نصرانياً ، من نصارى الكَرَك ، وُلذا يُشار إليه دوماً بابن القُفّ الكَرَكِي . مولده يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة ٦٣٠ هجرية ، ووفاته فى جمادى الأولى سنة ٦٨٥ هـ .

و يعد ابن القف ، أشهر تلاميذ ابن النفيس ؛ فقد نالت مؤلفاته شهرة واسعة ، حتى إن صاحب (معجم المؤلفين) يورد ترجمته ثلاث مرات ، فى كل مرة يستدرك و يذكر المزيد من مؤلفاته (٢١) .

---

(٢٠) نالت تذكرة السو يدى شهرة واسعة وحظيت بالعديد من الشروح ، منها : شرح عبد الوهاب الشعرانى المتوفى ٩٧٣ هـ — شرح محمد بن يحيى اللبيب الهروى ، المتوفى ٩٣١ هـ — شرح محمد بن إسحاق بن ابن العباس ، المعروف بشاه شجاع ، المتوفى ١٢١٦ هجرية ... انظر:

Brockelmann: Geschichte der Arabischen Literatur II, 900

(٢١) عمر كحالة : معجم المؤلفين ١٦/٣ — ٢٤٤/١٣ — ٤١١ .

ومن الأمور المدهشة ، أن ترجمة ابن القف قد وردت كآخر ترجمة فى (عيون الأنباء) حيث يذكر فيها : « هو الحكيم الأجلّ أمين الدولة أبو الفرج بن القُفّ ، كان والده صديقاً لى مستمراً فى تأكيد مودته ، كان ولده هذا أبو الفرج تتبين فيه النجابة من صغره ، كما تحقّقت فى كبره .. قصد أبوه تعليمه الطب ، فسألنى ذلك ، فلازمنى حتى حفظ الكتب المتداول حفظها فى صناعة الطب كمسائل حنين والفصول لأبقراط ، وتقدمة المعرفة له ، وقرأ علىّ بعد ذلك فى العلاج من كتب أبى بكر الرازى ، وعرّفته أصول ذلك وفصوله ، وفهّمته غوامضه ومحصوله » و بعد أن تورد هذه الترجمة كتب ابن القف تنتهى بقوله « توفى فى جُمادى الأولى سنة خمس وثمانين وستمائة ، والله أعلم (٢٢) .

ولا ندرى كيف يمكن أن يَرد تاريخ الوفاة الصحيح (٦٨٥ هجرية) مع أن ابن أبى أصيبعة صاحب الكتاب، توفى سنة ٦٦٨ هجرية .. وكيف نقبل هذا التأكيد الشديد على تلمذة ابن القف لابن أبى أصيبعة ، وعدم ذكر أستاذه الأصلى (ابن النفيس) مع أن المؤرخين المعتمدين ، كالعُمَرى وغيره ، عدُّوه من تلاميذ ابن النفيس المشهورين (٢٣) . عموماً إن هناك تلفيقاً ودسّاً قد وقع فى النسخة المنشورة من كتاب (عيون الأنباء) والعجيب أن محقّق الكتاب لم يلحظ ذلك التناقض فى تواريخ وفاة ابن القف وابن أبى أصيبعة ، مع ملاحظة أن هذا الخلط قد ورد بنسخة (عيون الأنباء) المحقّقة فى بيروت ، ولانعرف إذا كان قد ورد أيضاً فى طبعة المستشرق موللر؛ وهى الطبعة التى لم نطلع عليها لنفادها منذ عشرات السنين .. وعلى أية حال ، فإن ترجمة ابن النفيس المدسوسة على نسخة (عيون الأنباء) المحفوظة بالظاهرية ، وترجمة ابن القف المدسوسة ــ أيضاً ــ على النسخة المحقّقة المنشورة من هذا الكتاب، تدعونا لإعادة النظر فى (عيون الأنباء) خاصة تلك الترجمات الواردة بنهايته .

ونعود لابن القف ، الذى لم يقتصر جهده العلمى على جانب الطب وحده . بل تعدّاه كسائر معاصريه ــ إلى فنون وعلوم أخرى ؛ فقد درس الفلسفة والفلك ، فتلقى المعارف الفلسفية على يد شمس الدين الخسروشاهى وعزالدين الغنوى الضرير، وقرأ كتاب أقليدس على يد مؤيد الدين العرضى .

---

(٢٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٧٦٨ .
(٢٣) راجع ترجمة ابن النفيس فى مخطوط مسالك الأبصار، ٧ ، ٢٢٥ .

وترك ابن القف عدة مؤلفات ، أشهرها كتاب (العُمْدَة فى صناعة الجراحة) وهو مطبوع وكتاب (الأصول فى شرح الفصول) وهو مخطوط فى مجلدين ، سمعت منذ سنوات عديدة أن الدكتور سامى حمارنه يسعى لتحقيقه ، وعرفت مؤخراً أن صيدلانياً بمدينة طنطا المصرية قد أنجز هذا التحقيق ولم ينشره بعد .

ولابن القف مؤلفات أخرى ، منها : الشافى فى الطب ــ جامع الغرض فى حفظ الصحة ودفع المرض ــ شرح كليات القانون فى ست مجلدات ــ مقالة فى حفظ الصحة .. وورد فى الترجمة المدسوسة على عيون الأنباء : « وله حواشى على ثالث القانون ولم يوجد ، شرح الإشارات مسودة لم يتم ، المباحث المغربية لم يتم » .

[٢] السديد الدمياطى :

و يعرف أيضاً بابن كُوجك اليهودى . يقول العُمَرى فى ترجمته : « قرأ على ابن النفيس والنابلسى ، وعلى ابن النفيس أكثر ، ومن مدده استكثر . أتقن الحكمة والطب ، وأخذ من كل فن بطرف .. خدم السلطان ، وتنافست الأمراء وأكابر الدولة فى معالجته ، وكان الأطباء إذا اختلفوا فى مرض أو دواء ، عادوا إليه ورجعوا إلى قوله .. و يكون مدار الكل على كلام السديد ، واعتماد السلطان عليه (٢٤) .

و يبدو أن السديد الدمياطى قد نال من غيرة معاصر يه وحسدهم شيئاً كثيراً : ففى ترجمة أحد الأطباء من أسرة ابن صغير (محمد بن محمد بن عبد الله) وكان يعانى الفقر ؛ فقال له الصفدى المؤرخ : لو جلست فى دكان عطار وعالجت الناس ، لدخلك كل يوم أربعون أو خمسون درهماً : فقال له الطبيب الفقير : يا مولانا ، هؤلاء نساء القاهرة إن لم يكن الطبيب يهودياً رشيقاً مائل الرقبة سائل اللعاب ، وإلا فما لهنَّ عليه إقبالٌ . يقول الصفدى : يُر يد بذلك السديد الدمياطى ، فإنه كان بهذه الصفة (٢٥) .

و بقطع النظر فى تقوُّل الحُسَّاد ؛ فقد وصف المؤرخون السديد الدمياطى بأنه « كان رجلاً عاقلاً ساكناً ، لا يكاد يتكلم حتى إذا تكلم كان البحر الزاخر والسيل

(٢٤) العمرى : مسالك الأبصار ، ص ٦٢٢ ، قسم ٣ ــ معجم الأطباء ، ص ٣٠١ .
(٢٥) الصفدى : الوافى بالوفيات ــ أحمد عيسى : معجم الأطباء ، ٣٠٣ .

المنحدر إلى نقول يستحضرها وبحوث يحررها وتجارب يذكرها .. وكانت له اهتمامات بعلم الموسيقى » وهو ما كان يهتم به أيضاً : ابن النفيس (٢٦) .

[٣] ابـن صغيـر:

وهو رئيس الأطباء بعد ابن النفيس ، فرج الله بن صغير.. يعقد العُمَرى مقارنة بينه و بين السديد الدمياطى فيقول : « كان السديد لا يخرج عن العادة ولا يعدل من المعهود (يقصد أنه كان يعالج بالأغذية ، وهى طريقة ابن النفيس) ولا يرى التفقه فى الطب كما كان عليه ابن صغير، وكان السديد اجتهاده لنفسه ، وابن صغير اجتهاده للعليل ، على أن السديد كان إذا لم يشاركه طبيبٌ آخر ، يطيِّب تطبيباً مُستقصى ؛ فأما إذا شُورك ، سكت وجَهلَ » .

و ينتهى ابن الصغير إلى أسرة طبية مشهورة بمصر ، وفدت إليها من بلاد العجم . وقد رُوى أن بنى كوجك (أسرة السديد الدمياطى) و بنى صغير أهل بيت واحد ، كانوا كلهم يعرفون ببنى كوجك ، وكوجك (تركية) تعنى باللغة العربية : صغير. فلما قدموا مصر ، عرَّب فريقٌ منهم اسم جدّهم المنسوبين إليه ، و بقى فريق على اسمه الأعجمى .

وفى معجم الأطباء جمع الدكتور أحمد عيسى تراجم العديد من الأطباء ، يحملون جميعًا لقب ابن صغير ، بينهم : الكمال عبد الرحمن بن ناصر بن صغير ــ علاء الدين على بن نجم الدين عبد الواحد بن صغير ــ محمد بن محمد بن على بن على بن صغير ــ محمد بن على بن عبد الكافى بن صغير ــ ناصر الدين محمد بن عبد الله بن صغير .. و يبدو أن هذه الأسرة الطبية قد دخلت الإسلام بعد نزولها مصر ، ونالت فى الطب درجة رفيعة ، فقد كان منها جملة من رؤساء الأطباء ، منهم : فرج الله بن صغير تلميذ ابن النفيس ، وحفيده : على بن عبد الواحد بن صغير الذى تولى رئاسة الطب بالقاهرة ، ودرس على يديه الشيخ عز الدين بن جماعة .. وكانت وفاة الأخير سنة ٧٩٦ هجرية (٢٧) . أما الأول ، فلم تحدِّد المصادر تاريخ وفاته .

---

(٢٦) يقول ابن النفيس فى المقالة السابعة من شرح فصول أبقراط ، إن له مؤلفات موسيقية تناول فيها عملية خروج الصوت من الحنجرة ، لكن هذه المؤلفات الموسيقية فى حكم المفقود .

(٢٧) د/ أحمد عيسى : معجم الأطباء ، ص ٣١٠ .

[٤] ابـــن الـبـرهـــان :

وهو صلاح الدين محمد بن إبراهيم ، المعروف بابن البرهان الجرائحى ، المتوفى فى جُمادى الأولى سنة ٧٤٣ هجرية : ذكر العمرى (٢٨) ، والعسقلانى (٢٩) ، والسيوطى (٣٠) أنه تلقى الطب على يد ابن النفيس ، وأنه مهر فى الكحل (طب العيون) حتى ذاع صيته .

وكعادة علماء العصر ، تلقى ابن البرهان العديد من أصناف العلم ، فقد قرأ الطب أولاً على العماد النابلسى ، ثم على ابن النفيس ، وشرع فى قراءة الشفاء لابن سينا فى الفلسفة على شمس الدين الأصبهانى ، وقرأ العربية على ابن النحاس ، وتطلّع ــ كما يقول العمرى ــ إلى الكيمياء والنجوم ومخاطبات الكواكب .. ولننظر فى هذا النص من مسالك الأبصار :

« .. وكان ابن البرهان عارفاً بالطب علماً لا عملاً ، ولا يُحسن العلاج ، ولا يطوّل روحه على العليل ، كثير النزاقة عديم التلطُّف ، كارهاً لأطباء زمانه ، **لا يذكر أحداً منهم إلاَّ ذَمَّه وأطلق لسانه فى معايبه ، وكان يقول : هؤلاء اليهود قد** ارتفع رأسهم فوق وسعهم على جهلهم وقلة حاصلهم ، يعنى السديد الدمياطى ، وفرج الله بن صغير ، لا يزال يتوقد غيظاً منهما وحسداً لهما .. ولم يصنّف مصنفاً ولا طلع له تلميذٌ » .

ومع ذلك ، فقد روى العُمَرى بعض المناقب لابن البرهان ، وذكر اتصاله العلمى بالملك المؤيَّد داود ملك اليمن ، وتعاونهما فى مجال الأعشاب والصيدلة ، وما كان يناله ابن البرهان من فضل الملك المؤيَّد .. وقد ذكر المؤرخون أن ثروة ابن البرهان التى تبرَّع بها للدولة ، بلغت عند وفاته ٣٠٠,٠٠٠ درهم .

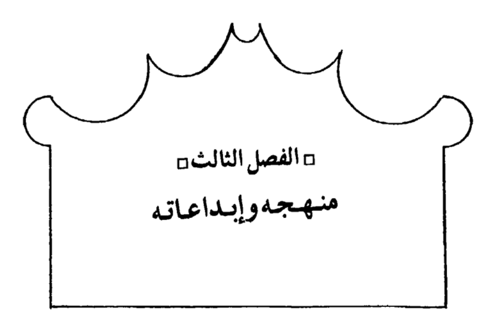
وهناك العديد من تلامذة ابن النفيس ، غير هؤلاء الذين ذكرناهم ، فهناك البدر حسن الرئيس ، وأبو الفرج السكندرى ، وغيرهما .. لكن المجال يضيق عن استعراض الكل .

---

(٢٨) العمرى : مسالك الأبصار (مخطوط) ، الجزء الخامس ، القسم الثالث ، ص ٤٣٩ .

(٢٩) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (حيدر آباد الدكن ١٣٥٠ هجرية) ، المجلد الثالث ، ص ٢٨٨ .

(٣٠) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ٣١٥/١ .



▫ الفصل الثالث ▫

منهجه وإبداعاته

أولاً ــ المنهــج :

لم يضع ابن النفيس مؤلفاً مستقلاً فى المنهج ولم يفرد لذلك فصلاً خاصاً بأحد مؤلفاته . لكننا يمكن أن نستخلص من ثنايا تلك المؤلفات ، ما يرسم لنا جوانب وملامح المنهج العلمى عند ابن النفيس (١) .

* التجربــة :

للتجريب تراث طويلٌ عند علماء المسلمين ، فبرغم ازدراء اليونان للتجربة وعمل اليد ، فإن ورثتهم من المسلمين أقاموا البحث العلمى على قاعدة التجريب .. وفى نصوص جابربن حيَّان والحسن بن الهيثم ، وغيرهما من رواد البحث العلمى العربى ، دلائلُ وفيرةٌ على ذلك .

وعند ابن النفيس ، كانت التجربة واحدة من القواعد الأساسية للمنهج ، فهو كثير الإشارة إلى اعتماده على التجربة لمعرفة خواص العناصر ، واكتشاف العلاقات الضرورية بين الظواهر ، ودحض ما يراه خاطئاً من آراء السابقين عليه .. انظر مثلاً قوله فى نقد رأى الأطباء القائلين بضرورة المبادرة إلى الاستفراغ فى جميع الأمراض الحادة ــ دون انتظار نضج المواد المراد استفراغها ــ واستدلالهم على ذلك بالتجربة والقياس ! يقول ابن النفيس فى رَدِّه : أما التجربة ، فعارضة بتجربتنا وتجربة الفضلاء قبلنا ، فإنهم (أيضاً) شاهدوا أن النقاء وكمال الصحة ، يكونان عند الاستفراغ الواقع بعد النضج أتمّ (٢) .

---

(١) ألقى هذا البحث فى المؤتمر السنوى للجمعية الفلسفية المصرية ، يوليو ١٩٩٠ .

(٢) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، تحقيق د / يوسف زيدان ، د / ماهر عبد القادر محمد على (الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة) ص ١٥٢ .

و يتضح من هذا النص أن ابن النفيس كان يراعى مبدأ (تكرار التجربة) حيث نراه يضيف نتائج تجارب السابقين ، إلى نتاج تجربته هو، ليقوى بذلك القانون القائم على التجربة . وهو أيضاً كثير الإشارة إلى ما تفرضه التجربة العلمية من (دقة المشاهدة) ولذلك يتكرر مصطلح المشاهدة كثيراً فى مؤلفاته بمترادفات مثل : لوحظ ــ شوهد ــ عوين ... إلخ .

وقد وضع ابن النفيس ما يسميه (شروط التجربة) حين اشترط مراعاة بعض الأمور عند التجريب . ولننظر إليه وهو بصدد الوصول إلى معرفة جيدة بخواص الأدوية ، يقول ابن النفيس :

كل واحد من الأدوية المفردة والمركبة ، فإن مزاجه يعرف بطريقتين : إحداهما التجربة والأخرى القياس ، وإنما يوثق بدلالة التجربة بعد مراعاة شروط :

أحدها : خلو الدواء عن كل كيفية خارجة عنه ، كالعفونة والتسخين بالنار .

وثانيها : أن تكون التجربة على الشيء الذى يُنسب ذلك الدواء إليه .

وثالثها : أن تكون التجربة فى علل متضادة ، فتنفع فى عِلّة وتضر فى ضدها ، فلو نفع فى الضدّين أو ضرّهما ، لم يدلّ ذلك على مزاجه .

ورابعها : أن يعلم أن ضرره لا لإفراطه ، بل لموافقة المرض فى المزاج .

خامسها : أن تكون التجربة فى علة بسيطة .

وسادسها : أن يكون صدور فعل الجواب قبل مفارقته ، وإلا ففى الأكثر يكون ذلك بالعرض .

وسابعها : أن يكون صدور ذلك الأثر عنه دائماً وأكثرياً ، فإن الأقلىّ قد يكون اتفاقاً .

وثامنها : أن يكون تأثيره بما هو دواء ، لا بأن يزيد فى الدم و يسخّن ، أو يولد السوداء فيبرِّد (٣) .

وجدير بالذكر أن ابن النفيس لم يكن رائد التجريب فى مجال الطب ، فقد سبقه لذلك مشاهير أطباء المسلمين ، كالشيخ الرئيس ابن سينا والعلامة أبوبكر الرازى ، ولعل ذلك ما حدا به لاعتبار التجربة ، كإحدى بديهيات منهج البحث العلمى ، ثم

(٣) ابن النفيس : المهذب فى الكحل المجرب ، تحقيق د/ محمد ظافر الوفائى ، د/ محمد رواس قلعة جى (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ الرباط) ص ١٩٢ .

توسع فى الكلام عما يستلزمه التجريب من تحديد للموضوع ، ومعرفة سابقة بجوانبه ، ودقة ملاحظة التغيرات ، ومراعاة شروط كل تجربة .

* **القيـــاس :**

غالباً ما تقترن لفظتا (القياس ــ التجربة) فى معرض حديث ابن النفيس عن طرق الإثبات . وقد وضع ابن النفيس فى شرحه على فصول أبقراط Aphor isme تعريفاً جمع فيه التجربة والقياس ، فقال : التجربة امتحان فعلِ ما يورد على البدن ، إما لتحقيق دلالة القياس ــ كما إذا دلَّ قياسٌ على برودة دواء ، فأردنا تحقيق ذلك ــ أو لغير ذلك (٤) .

ودلالة القياس عند ابن النفيس تعنى ما ينطبق من المبدأ العام على الحالات الجزئية ، وقد كانت فى عقل ابن النفيس بعض المبادئ التى تحكم القياس ، وهى فى الغالب مبادئ طبية وفلسفية كان الحكماء من قبله قد أفاضوا فى الحديث عنها . ومن أهم هذه المبادئ :

ــ الضدُّ للضدِّ شفاءٌ .
ــ الأخلاطُ الأربعةُ .
ــ الغائيةُ فى الطبيعة .
ــ القوةُ الشافيةُ الكامنةُ فى الجسم (٥) .

ولما كان الأمر يقتضى التثبت من انطباق هذه المبادئ العامة على الحالات الجزئية ، فهنا يأتى دور التجربة .. ومع ذلك ، فإن ابن النفيس يشير فى أحيان كثيرة إلى ما يسميه (القياس الواحد) وهو عنده بمثابة البديهية التى لا تحتاج لتجريب لتثبت ، وإنما هى سابقة فى العقل قبل التجربة . فمن ذلك القياس (الأول) عنده ، أن الاستفراغ يكون من الجهة التى تكون المادة إليها أميل .

لكن ثقة ابن النفيس بالتجربة كانت أعلى من ثقته بنتائج القياس ، ولهذا نراه فى كثير من المسائل يعتد بالتجربة لا بالقياس .. فمن ذلك ، عملية التعرُّف على آثار الدواء المركب ، حيث نراه يقول :

---

(٤) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، ص ٩٧ .
(٥) انظر تناولنا التفصيلى لهذه الفكرة ، فى مقدمة تحقيقنا لكتاب ابن النفيس (المختار من الأغذية) تحت الطبع .

«الدواء المركب قد تحدث له صورةٌ نوعيةٌ تصدرعنها آثارمغايرة للآثار التى تقتضيها مفرداته ، وتلك الآثار إنما يوقف عليها من التجربة ، ولا تعرف بطريق القياس البتة .. وقد تكون الآثار الحادثة عن الجملة خفية عن القياس ، ولذلك فإن الدواء المركب قد يكون نافعاً ، وإن كان كلٌّ واحد من بسائطه شديد الضرر، وقد يكون بالعكس من ذلك .. فهلذا كان المجرَّب من الأدوية ، خيرٌمن غير المجرَّب ، وما هو مشهورٌمن المركبات فهو خيرٌمن الغريب ؛ لأن المشهور لم يشهر إلاَّ وقد جُرِّب كثيراً (٦) .

* الاستقــراء :

فهم ابن النفيس الاستقراء واستخدمه ، بمعناه الأرسطى (الحكم على الكُلِّى بما يوجد فى جزئياته) فكان الاستقراء عنده مقابلاً من الناحية المنهجية للقياس ، فإذا كان القياس انتقالا من مقدمة ــ أو مقدمات ــ كلية ، إلى نتيجة جزئية .. فالاستقراء عنده وصول إلى قاعدة كلية استناداً لحالات جزئية .

وقد توسَّع ابن النفيس فى تطبيق الاستقراء بشكل ملحوظ ، حتى إننا كثيرًا ما نقابل فى مؤلفاته عبارة (وقد دلَّ الاستقراء على أن ..) ومن ذلك ما نراه عند محاولته تحديد نوبات البحران Crises باستقراء أحوال الطبيعة الخارجية .. يقول ابن النفيس : « وقد دلَّ الاستقراء على أن لرطوبات هذا العالم انفعالات ، عند أحوال تعرض فى القمر، فإنها تنقص عند الاجتماع وتزداد عند الاستقبال والتربيع ؛ ولذلك تزداد الأدمغة ومياه العيون والآبار فى أنصاف الشهور، وتنقص فى أواخرها » (٧) .

ثم يمضى ابن النفيس فى استقراء كافة الجوانب المحيطة بنوبات البحران ، ليضع فى النهاية ذلك القانون الخاص بأوقات البحران ، والذى يرد فى العديد من مؤلفاته .

وقد أشار ابن النفيس لهذه القاعدة المنهجية وفائدتها ، حين قال فى شرحه على (أبيذيميا أبقراط) ما نصه : « إن المسائل المعلومة ، إذا جمعت كلها فى قاعدة سهل إقامة البرهان على تلك المسائل كلها ؛ لأن البرهان الواحد الذى يقام عليه تلك

(٦) ابن النفيس : المهذب فى الكحل المجرب ، ص ٢٠٣ .
(٧) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، ص ١٨١ .

القاعدة ، يكون برهاناً على كل واحدة من تلك المسائل ، وإذا ثبتت تلك القاعدة فأى جزء من الأحكام دخل فيها ، عُلم أنه صواب (٨) .

ـ السبر والتقسيم :

لم يكن غريباً على ابن النفيس المشتغل بالفقه ، أن يتضمن منهجه عملية السبر والتقسيم التى استخدمها الفقهاء من قبله ، وقد طبّق ابن النفيس هذه القاعدة الفقهية الاستدلالية فى مجال العلم ، كما سنرى .

وتعريف السبر والتقسيم اصطلاحاً (حصر الأوصاف فى الأصل ، وإبطال ما لا يصلح ليتعين ما بقى) (٩) ، وقد استخدم ابن النفيس هذه القاعدة المنهجية لتحديد المراد من عبارة أبقراط الشهيرة فى بداية تقدمة المعرفة : « إنى أرى أنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر» .. يقول ابن النفيس فى شرحه على هذه التقدمة « النظر يقال على معان ، المشهور منها ستة : أحدها تأمل الشىء بالعين ، وثانيها الانتظار، وثالثها المقابلة ، يقال دور مناظرة أى متقابلة ، ورابعها العناية ، يقال نظر الله إلى فلان أى اعتنى به ، وخامسها الفكر والروية ، يقال كذا فيه نظر ، أى فيه فكر ، وسادسها العلم ، ولذلك يسمى الجزء العلمى من الطب بالجزء النظرى » (١٠) .. ثم ينتهى ابن النفيس إلى أن المراد بالنظر هنا ، هو المعنى السادس الأخير.

وعلى هذا المنوال السابق ، سار ابن النفيس فى مؤلفاته ، فهو ما إن يعرض لظاهرة إشكالية ، إلا واستعرض سائر عناصرها ، وفنّد هذه العناصر ونقدها بشتى وسائل الاعتبار، حتى يصل إلى ذلك العنصر (العِلّى) فى الظاهرة .

وقريب من السبر والتقسيم ، ذلك النزوع إلى (التصنيف) الذى يظهر بوضوح فى أعمال ابن النفيس .

---

(٨) ابن النفيس : شرح كتاب أبيذيميا لأبقراط (مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٥٨٣ / طب طلعت) ورقة ١٤٨ أ .

(٩) ابن المناوى : التوقيف على مهمات التعاريف ، تحقيق د/ عبد الحميد صالح حمدان (عالم الكتب ـ القاهرة) ص ١٩٠ .

(١٠) ابن النفيس : شرح تقدمة المعرفة لأبقراط (مخطوط بلدية الإسكندرية رقم ١٥٤٧٦ / طب) الورقة الثانية أ .

* **التصنيف :**

أول ما يتبادر إلى الأذهان عند ذكر التصنيف ، هو ذلك الولع العلمى عند المسلمين لوضع (تصنيف العلوم) وذكر أقسامها ، وهو ما يمثل فى التراث الإسلامى سلسلة طويلة من المؤلفات والأعمال الموسوعية ، فمنها (مفاتيح العلوم) للخوارزمى ٣٨٧هـ (أقسام الحكمة) لمسكويه ٤٢١هـ (أقسام الحكمة) لابن سينا ٤٢٧هـ (أنموذج العلوم) للبلوى ٥٥٩هـ (أقسام الحكمة) لنصير الدين الطوسى ٦٧٢هـ (تقسيم العلوم) للجرجانى ٨١٦هـ (أنموذج العلوم) لمحمد شاه فنارى ٨٣٩هـ ، وجلال الدين الدوانى ٩٠٧هـ ، وعيسى صفوى ٩٥٣هـ ، وأفضل الدين محمد ٩٩٠هـ ، ونور الله شُشْتَرى ١٠١٩هـ ، ومحمد حسن الشروانى ١٠٩٩هـ .. وغير ذلك الكثير .

وقد وضع ابن النفيس تصنيفاً للعلوم فى اثنين من مؤلفاته : الأول كتابه الموسوعى الضخم (الشامل فى الصناعة الطبية) حيث ابتدأ بذكر أصناف العلوم مع عناية خاصة بأقسام صناعة الطب (١١) .. والثانى كتابه (المختصر فى علم الحديث) الذى عقد فى بدايته فصلاً لأقسام العلوم الطبيعية والشرعية (١٢) .. ولا شك فى أن عالماً موسوعياً كابن النفيس ، كان لابد له من إجراء هذا التصنيف ، بغرض الإطلال على المعارف المتنوعة السائدة فى عصره ، وتحديد المقتضيات المنهجية والاصطلاحية والغائية لكل علم على حدة .

ثم يأتى التصنيف فى الموضوعات الفرعية ، حيث نرى ابن النفيس دائم التوقف أمام المسائل العلمية ذات العلاقات المركبة ، بهدف التوصل عن طريق التصنيف ، إلى تصور أشمل لها : فمن ذلك ما نراه عند تعرضه للعلاقة بين طبيعة البدن وقوة هضمه ، فيقول : « ومواد البدن ، إما أن تكون زائدة ، أو ناقصة ، أو لا تكون . والأعضاء الهاضمة إما أن تكون قوية ، أو ضعيفة ، أو متوسطة . فيحدث من ذلك تسعة تراكيب :

(١) بدن مُمتلئ قوىُّ الهضم .

---

(١١) ابن النفيس : الشامل فى الصناعة الطبية (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٦٠٥٧ / ل) المقدمة ، الفصل الأول .

(١٢) ابن النفيس : المختصر فى علم الحديث ، تحقيق د / يوسف زيدان (تحت الطبع) الفصل الأول .

(٢) بدن مُمتلئ ضعيف المضم .
(٣) بدن مُمتلئ متوسط قوة المضم .
(٤) بدن خال قويّ المضم .
(٥) بدن خال ضعيف المضم .
(٦) بدن خال متوسط قوة المضم .
(٧) بدن متوسط فى الامتلاء والخلاء قويّ المضم .
(٨) بدن متوسط الامتلاء ضعيف المضم .
(٩) بدن متوسط الامتلاء متوسط المضم (١٣) .

ثم يشرع ابن النفيس بعد ذلك فى بيان طبيعة كل صنف من هذه الأصناف ، وبيان التدبير اللازم له فى حالتى الصحة والمرض .. وعلى هذا النحو ، كثيراً ما نجد ذلك التطبيق المنهجى (الرياضى) فى مؤلفات ابن النفيس ، وهو يذكر فائدته فيقول : « وفائدة ذلك البسط وتفريع المسائل ، حتى تُزاد ظهوراً ، وتكثر الأمثلة عند الطبيب ، وينظر فيا تتشابه الاختلافات ، فيفرد كل جملة منها متساوية ، فى باب ، فتنضبط بذلك فنون الصناعة » (١٤) .

* الموضوعية :

تميَّز ابن النفيس فى أبحاثه بالموضوعية ، وهو عادة ما يستهلُّ مؤلفاته بالإشارة لهذه الخاصية ، فنراه فى بداية (شرح الفصول) يقول : « وأما نصرة الحق وإعلاء مناره ، وخذلان الباطل وطمس آثاره ، فأمرٌ التزمناه فى كل فناً .. » وهو تقريباً ما يبدأ به (شرح التقدمة) حين يقول : « شرع فلان .. سالكين طريقنا فى مطابقة الحق ونصرته ، ومجانبة الباطل ومدافعته » .

وقد أدّت الموضوعية بابن النفيس إلى عدم الخلط بين المفاهيم الدينية والعلمية ، فلا نراه يكتب فى الطب بعقل الفقيه ــ كما فعل السيوطى والبغدادى ــ وإنما يعطى لكل أمر ما يستحقه ، ولنضرب مثلاً من كتابه (الموجز) حيث نرى ابن النفيس ، فقيه الشافعية يقول فى الخمر:

(١٣) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، ص ١٣٩ وما بعدها .
(١٤) ابن النفيس : المهذب فى الكحل المجرب ، ص ١٣٩ .

«والعلامة الجيدة للشراب الجيد الخالي من الغش، أنه إذا ترك المقدار القليل منه مُدّة طويلة لم يفسد، وبقدر طول المدة تُعرف جودته، والرقيق ألطف وأسرع إسكاراً وتحللاً وأدوم خماراً لكنه يسمن .. و ينبغي أن يُحَفَّ مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس والأراييح اللذيذة والسماع والطرب .. وليكن المجلس مشرفاً فسيحاً بقرب المياه الجارية، ومع الظرفاء من الأصدقاء .. ومنافع الشراب منها نفسية ومنها بدنية : أما النفسية فلا يمكن أن يساويه فيها غيره، وذلك كالسرور و بسط النفس وتقويتها .. وأما البدنية، كتحسين اللون وإنارته وتبريقه وإشراقه، وتقوية الحرارة الغريزية وإنعاشها .. وتقوية الهضم .. ونفعه يتعلق بالقوى الطبيعية والحيوانية أكثر من القوى النفسانية، وإدامته تبلد الذهن وترخي العصب وتورث الرعشة والتشنج، وكثيراً ما يموت السكران بالسكتة .. والسكر المتواتر يوهن قوى الدماغ والعصب ولا بأس به في الشهر مرتين لإراحة قوى الدماغ .. » (١٥) .

هكذا يعرض ابن النفيس (الطبيب) لخواص الخمر ومنافعها ومضارها في حيدة كاملة، فهو لم يخلط بين خواص الخمر وأحكامها الشرعية، ولم يقحم نفسه كفقيه فيتحدث بلهجة خطابية، وإنما عرض للخمر عرضاً وافياً، اضطررنا هنا لاختصاره لضيق المقام .. ومع ذلك، فإن ابن النفيس (المسلم) قد رفض في علّته الأخيرة تناول الخمر، ولو على سبيل التداوي ! وهكذا تتضح (الموضوعية) في البحث العلمي، كما يتجلى (الإيمان) في الحياة الوجدانية عند ابن النفيس ..

إلاَّ أن التزام ابن النفيس بالموضوعية لم يكن تاماً .. فقد تعرض في كتابيه (الرسالة الكاملية = فاضل بن ناطق) (والمختصر في علم الحديث) إلى أخطر قضية في الفكر الإسلامي، وهي اقتتال الصحابة بعد موت النبي، وما جرى بين عليّ ومعاوية وغيرهما، مما تفرع عنه ذلك الانشطار الحاد في مواقف أهل السنة والشيعة والخوارج وغيرهم .

لما تعرّض ابن النفيس لذلك، انحاز تماماً لما يقرره أهل السنة من آراء، بل نراه يتخذ تبريرًا في (الرسالة الكاملية) مؤداه أن ما حدث كان لابد وأن يحدث، نظراً

---

(١٥) ابن النفيس : الموجز في الطب، تحقيق عبد الكريم العزباوي (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة) ص ٥٧ ، ٥٩ .

لاختلاف طبائع الناس (١٦). ثم يعود ليتخذ فى (المختصر) موقفاً تلفيقياً، يعّبر عنه بقوله: «وأما الحق، فإن جميع ما صدر عن الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ من الخلاف بينهم، والمقاتلة، والسب، ونحو ذلك، فإنما كان عن تصلُّب منهم فى الدين.. هذا معتقدنا فيهم» (١٧).

* النقدية:

ظهرت عند ابن النفيس تلك النزعة النقدية التى تعدُّ ركيزة أساسية للمنهج العلمى والفلسفى، فقد نظر لآراء السابقين بعين النقد، فلم يقبل أقوالهم كمسلَّمات، بل كان يعتد أساساً بما يعطيه البحث بقطع النظر عن الموروث من النظريات.. انظر إليه فى بداية مؤلفه الرائع (شرح تشريح القانون) حين يقول: «وأما منافع كل واحد من الأعضاء، فإنا نعتمد فى تعرُّفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأى مَن تقدمنا أو خالفه» (١٨). ثم شرع فى هذا الكتاب ــ وغيره ــ فى انتقاد آراء السابقين وتمحيصها، وإثبات وجهة نظره الخاصة فيما يتعرض له من موضوعات.. فكان يستخدم تعبيرات مثل: والتشريح يكذب ما قالوه.

وقد أضاف ابن النفيس للنقدية ملمحاً هى فى حاجة إليه، وذلك هو (الأدب فى النقد) فهو حين يخطّئ رأياً أو يثبت بطلانه، يعقب ذلك دوماً بعبارات مثل: والأرجح أنه من عمل النساخ ــ وهى أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ... إلخ، وبذلك يعفى العلماء السابقين عليه من الحَرج، ويظهر تقديره العميق لهم.

ومع ذلك، فقد حطَّ ابن النفيس بشدة من قدر جالينوس! فمع أنه كان وافر الأدب مع أبقراط وابن سينا، إلا أنه كان كثير الهجوم على جالينوس، فهو أحياناً يعرض لرأى جالينوس فى مسألة، ثم يقول: «.. وهو ظاهر كلام جالينوس،

---

(١٦) ابن النفيس: الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية، تحقيق/ عبد المنعم محمد عمر (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة) ص ٢١٨.

(١٧) ابن النفيس: المختصر فى علم الحديث، الفصل الثالث من الباب الرابع.

(١٨) ابن النفيس: شرح تشريح القانون، تحقيق د/ سلمان قطايه (الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة) ص ١٧.

وما ذكرناه أكثر فائدة » (١٩) ، ثم يشتدُّ عليه فى موضع آخر ، كما فى عرضه لمسألة تشريح الأسنان ، حيث يقول : « وقد شنَّع جالينوس على مَن يجعلها عظاماً ، وجعلهم سوفسطائية ، واستدل هو على أنها عظام ، بما هو عين السفسطة ، وذلك لأنه قال .. » (٢٠) .

ولكن نزعة ابن النفيس النقدية ، وميله لمخالفة السابقين ، أوقعا به فى الخطأ أحياناً (قليلة) منها رفضه لما ذكره ابن سينا عن حركة البطين الأيمن ، فإذا بابن النفيس يعارضه بقوله إن الحركة لا تتحقق فى البطين الأيمن من القلب ، فهو بعبارة ابن النفيس : « غير متحرك البتة » ولاشك أن الخطأ هنا راجع إلى عدم تشريح ابن النفيس للأحياء ، كيا يرى حركة هذا البطين .. ومع ذلك فقد قدم ابن النفيس تصوراً ثورياً فى الدورة الدموية ، وتجاوز هذا الخطأ باعتماده على قوة دفع البطين الأيسر ، وانجذاب الدم إلى الأعضاء .

ثم يعطينا ابن النفيس مجموعة من القواعد النقدية ، التى يمكن أن نسميها (معايير الحكم على الأخبار) فهو يرجِّح صدق وكذب الخبر والقول ، تبعاً للقواعد الآتية :

(١) إن الخبر إذا اعتبر بذاته فقط ، كان لا محالة محتملاً للصدق والكذب .
(٢) إذا اعتبر الخبر مع أمر ينضاف إليه فقد يصير معلوم الصدق وقد يصير معلوم الكذب ، وقد يُظن به الصدق وقد يُظن به الكذب .
(٣) الخبر المعلوم الصدق قد يكون كذلك ؛ للعلم بصدق المخبر .
(٤) الخبر الذى تحتفُّ به قرائن كثيرة ، تدلُّ على صدقه .
(٥) الخبر اللازم عن خبر صادق ، يدلُّ ذلك على صدقه .
(٦) الخبر المعلوم الكذب قد يكون كذلك لتضاده أو تناقضه مع خبر صادق .
(٧) الخبر الذى يخالف الواقع والعلم والبداهة ، يدل ذلك على كذبه .
(٨) الخبر الذى لم تحتفَّ به قرائن تدل على صدقه - مع أهميته وشهرته - خبرٌ كاذبٌ .
(٩) الخبر المظنون الصدق ، كالإخبار عن شىء وجوده أكثرىٌّ .

---

(١٩) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، ص ١٠١ .
(٢٠) ابن النفيس : شرح تشريح القانون ، ص ٩٣

(١٠) الخبر المظنون الكذب ، كإخبار المعتاد على الكذب بأمر نادر الوجود ، أو تفرد خبر تتوفر الدواعى على نقله [٢١] .

وقد يبدو هذا التقسيم لمعايير الحكم على الأخبار، لازماً لمقتضيات علم الحديث النبوى ، لكنه دون شك ينسحب أيضاً على بقية العلوم .. وهكذا ، كان النزوع الموسوعى عند ابن النفيس ، أمراً خادماً لتكوين رؤية منهجية عامة ، ذات طابع علمى . خاصة وأنه أدرك طبيعة كل علم على حدة ، ولم يقحم التصورات الخاصة بفرع من العلوم فى فرع آخر! فإذا كانت ضمن الأخطاء المنهجية عند جابر بن حيَّان ، تغليب اعتقاده الإسماعيلى عند حديثه عن (دلالة الآثار) كإحدى طرق الاستدلال المنطوية على درجات اليقين ، فإن ابن النفيس (المحدِّث) لم يُقحم تصوراته على ابن النفيس (العالم الموسوعى) وقد ظهر ذلك عند مخالفته لآراء كبار المحدِّثين ـ كابن الصلاح ـ وتأكيده أن الحديث مهما بلغ من الصحة ، فإنه لا يفيد اليقين ، وإنما يفيد الظن [٢٢] .

* تحديد المفاهيم :

اهتم ابن النفيس اهتماماً كبيراً بتحديد مفهوم كل مصطلح ، وتوضيح دلالة كل لفظ يستخدمه . وقد انتبه ابن النفيس لخطورة هذا الأمر، وما يحدثه غموض اللفظ ـ أو عدم تحديده ـ من فوضى معرفية . لهذا احتشدت فى مؤلفاته ، تلك التعريفات الدقيقة للمفردات التى يستخدمها فى كل فنٍّ ، وحرص دوماً على بيان المقصود منها قبل الولوج إلى الدقيق من المسائل .. ومثال على ذلك ، نجده حين أراد ابن النفيس أن يشرح قول أبقراط (وإذا كان المرض حاداً جداً ، فإن الأوجاع التى فى الغاية القصوى تأتى فيه بدءاً ، فيجب ضرورة أن يستعمل فيه التدبير الذى هو فى الغاية القصوى من اللطافة فإذا لم يكن كذلك .. فينبغى أن يكون الانحطاط على حسب لين المريض ونقصانه عن الغاية القصوى .. إلخ) يقول ابن النفيس :

لنقدم قبل الشرح مقدمات ..

---

(٢١) ابن النفيس : المختصر فى علم الحديث ، المقدمة .
(٢٢) ابن النفيس : المختصر، الباب الثانى .

الأولى : المرض الحادُّ بقول مطلق ، هو ما من شأنه الانقضاء فى أربعة عشر يوماً . والقليل الحدَّة ، ما ينقضى فيما بعد ذلك ، إلى سبعة وعشرين يوماً . وحادُّ المزمنات ، ما ينقضى فيما بعد ذلك إلى الأربعين ، والحادُّ جداً ، ما ينقضى فيما بين التاسع والحادى عشر . والحادُّ فى الغاية ما ينقضى فيما بين الرابع والسابع ، والحادُّ فى الغاية القصوى ، ما ينقضى فى الرابع فما دونه .

الثانية : الغذاء اللطيف . منه اللطيف مطلقاً كلحم الجدى وأطراف الضأن للأصحاء وأطراف الفراريج للمرضى . ومنه لطيف جداً كالدجاج وأطراف الأجدية للأصحاء ، وأمراق الفراريج وثخين ماء الشعير للمرضى . واللطيف فى الغاية كالفراريج ومرقة اللحم للأصحاء ، والسويق وماء الشعير المتوسط للمرضى ، واللطيف فى الغاية القصوى ، كأمراق الدجاج وأطراف الفراريج للأصحاء ، والجلاب وماء الشعير الرقيق للمرضى .

الثالثة : كلُّ مرض يحدث شيئاً فشيئاً ، فله أربعة أوقات ؛ لأنه إذا ظهر ، فإما أن يكون فى حال يظهر فيها اشتداده أو انتقاصه أو لا يظهر فيهما واحدٌ منهما . والأول وقت (التزُّيد) والثانى وقت (الانحطاط) والثالث إن كان قبل التزيُّد فهو وقت (الابتداء) وإن كان بعده فهو وقت (الانحطاط) .

الرابعة : الابتداء يقال على ما ذكرناه ، و يقال على أول زمان حدوث المرض ، و يقال على الأيام الثلاثة الأول .. والأوجاع التى فى الغاية القصوى ، هى أعراض المنتهى (٢٣) .

و بعد انتهاء ابن النفيس من هذه المقدمات ، وتحديده الموجز الدقيق لدلالة الألفاظ ، عبر ذلك التفريغ (الرياضى) للمصطلحات الخاصة بهذه القضية ، يبدأ ابن النفيس فى شرح كلام أبقراط ؛ ليضيف من معارفه هو أشياء ، ربما لم يفطن إليها أبقراط نفسه وهو يضع فصوله الموجزة .

---

(٢٣) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، ص ١١٤ وما بعدها .

* أسلوب العرض :

وهو الملمح الأخير لمنهج ابن النفيس الذى نعرض له هنا .. فقد انعكست على كتابات ابن النفيس تلك الخاصية الناشئة من كونه مدرساً للطب والفقه ، وهى خاصية العرض المنهجى للقضايا ، ولنكتف بمثال وحيد على منهجية عرضه ، وهو ما نراه عند تناوله لكيفية الرؤية ، وتقديم نظريته الخاصة فيها عبر الفصول التالية من كتابه المهذّب ، حيث سارت الفصول على النحو التالى :

الفصل الأول : فى تحديد الأشياء المبصرة .

الفصل الثانى : فى تفسير الألفاظ التى يكثر استعمالها فى هذا الفن .

الفصل الثالث : فى الشروط المتفق عليها فى الرؤية بالعين .

الفصل الرابع : فى مذاهب العلماء فى الرؤية .

الفصل الخامس : فى ذكر حجج القائلين بهذه الآراء .

الفصل السادس : فى إبطال آراء المخالفين ودحض حججهم ، ونصرة الحق الذى هو مذهبنا واعتمادنا عليه .

الفصل السابع : فى بسط الكلام فى تحقيق مذهبنا وتثبيته .

الفصل الثامن : فى شُبَه يمكن إيرادها على مذهبنا فى الإبصار .

الفصل التاسع : فى حلّ هذه الشكوك [٢٤] .

على هذا النحو ، يعرض ابن النفيس لنظريته الخاصة فى كيفية الإبصار وتحقُّق الرؤية بالعين . وهى النظرية التى سنعرض فحواها ضمن إبداعات ابن النفيس .

ثانياً ـ إبداعاته العلمية :

كان من الطبيعى أن ينتهى تطبيق هذا المنهج عند ابن النفيس ، إلى نتائج طيبة ، ولسنا هنا فى معرض الحديث عما انتهى إليه ابن النفيس ، وإنما نقتصر على الإشارة إلى بعض إبداعاته وأشجاره المثمرة فى تلك الحقول المعرفية التى اشتغل بها .

---

(٢٤) ابن النفيس : المهذب فى الكحل المجرب ، ص ٧٨ : ٩٨ .

* الشامل :

العبقرية فى تقديرى صبرٌ طويلٌ وعكوفٌ متصل ، وقد تجلّى ذلك عند ابن النفيس فى إقدامه على تأليف كتاب (الشامل فى الصناعة الطبية) لتصير هذه الموسوعة دون جدال : أكبر عمل موسوعيٍّ فى التراث العلمى .

شرع ابن النفيس فى كتابه الشامل ، بعد أن استوفى جوانب المعارف الطبية فى عصره ، فأراد أن يجمع شتات هذا العلم كما فعل ابن سينا فى « القانون » والرازى فى « الحاوى » ، لكن المعرفة الطبية فى عصره كانت قد اتسعت ، فكان لابد من اتساع موسوعة الشامل .

تناقل المؤرخون ما ذكره بعض تلامذة ابن النفيس من أن (فهرسة الشامل) تدلُّ على أنه يقع فى ٣٠٠ مجلد مخطوط ، وأن ابن النفيس وضع مسوداته ، لكن الأجل والأعوام الثمانين لم تمهله لتبييض تلك المسودات كلها ، فكان عند وفاته قد بيَّض منها ثمانين مجلداً ، كانت جميعها ضمن مكتبته الخاصة التى أهداها للبيمارستان المنصورى بالقاهرة بعد وفاته .. ثم شتَّتها المستشرقون وغُلب المسلمين ، فصارت اليوم موزعة بين مكتبات : دار الكتب المصرية ـــ الظاهرية ـــ متحف بغداد ـــ البودليان ـــ كمبردج ـــ مكتبة لاين الطبية بجامعة ستانفورد .. إلخ .

ومع محاولتى لجمع أجزاء هذه الموسوعة ، وقع فى يدى جزء منها بعنوان (كتاب اللام) وهو جزء من الأغذية المفردة ، جاء على الورقة الأولى منه أنه : « الكتاب الثالث والعشرون ، من الجزء الثانى ، من الفن الثالث ، من كتاب الشامل فى الصناعة الطبية » [٢٥] ، فإذا كان هذا الجزء يقع فى ٢٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، فلنا أن نتصور من فهرسته ، حجم هذه الموسوعة .

وفى هذا الجزء من الشامل ، يبدو لنا ابن النفيس فى ثوب لا نعرفه فى مؤلفاته الأخرى ، أعنى ابن النفيس (العشَّاب) فمع أن المصادر الخاصة به لم تُشر إلى نبوغه فى علم النبات ، إلاَّ أن استعراض ما جاء فى المخطوط ، يدلُّ على دراية ابن النفيس الواسعة بتلك المفردات التى تبدأ بحرف اللام ، كاللادن ، الذى استوفى ابن النفيس

---

(٢٥) ابن النفيس : الشامل فى الصناعة الطبية (مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٦٨١ / طب) كتاب اللام ، الورقة الأولى .

ماهيته وطبيعته وأحكامه عبر ثلاثة فصول مفردة .. وكذا الأمر فى بقية النباتات والأغذية المفردة ، فما بالك بالمركبة ؟

*** فاضل بن ناطق :**

من الطب إلى الفلسفة ، ينتقل ابن النفيس برسالته المسماة (فاضل بن ناطق) أو (الرسالة الكاملية) ليعارض الشيخ الرئيس ابن سينا فى رسالته الشهيرة : حى بن يقظان .

ورسالة ابن سينا من أهم النصوص الفلسفية ذات الطابع الرمزى المستغلق ، تأثر فيها ابن سينا بالتيارات الفلسفية السابقة عليه . وأثر بها فى العديد من الفلاسفة من بعده ، فنسج ابن طفيل على منوالها وعنوانها ، وكذلك فعل السهروردى الإشراقى بعد أن وضع لها عنواناً آخر: الغربة الغربية .. حتى بلغ تأثيرها إلى دانييل ديفو الذى كتب (روبنسون كروزو) بعد إخلاء قصة (حى بن يقظان) من دلالاتها الفلسفية ، وأبقى فحسب على جانبها الشكلى .

وإذا قارنا عنوانىْ ابن سينا وابن النفيس ، اتضح لنا على الفور ما يقدمه ابن النفيس من معارضة فلسفية لابن سينا .. فقد اختار الشيخ الرئيس كلمة (حىّ) التى تشير إلى الوجود الإنسانى ذاته ، ثم تلاها بكلمة (يقظان) كإشارة إلى الوعى الإنسانى بالكون . ومن خلال حى بن يقظان ، يعرض ابن سينا لانتقال العقل عبر عملية ديالكتيكية صاعدة ، تمر بالعقول العليا حتى تصل إلى المبدع الأول .

تنبّه ابن النفيس إلى ما تنطوى عليه هذه الفكرة من إنكار للنبوة وتقليل من شأنها ، حين تعرض لانتقال العقل الواعى من الوجود الحسى إلى العالم الإلهى دون معونة النبى ، وتصوير اللذة الناشئة من معرفة الله على أنها لذة عقلية صرفة ، مما يؤدى إلى القدح فى قيمة الثواب والعقاب الحسيين ، ومن ثَمَّ إلى إنكار البعث الجسمانى .. وهو ما يبسط ابن سينا القول فيه بمواضع أخرى من مؤلفاته ، مما جعل الغزالى يستشيط غضباً .

وجاء ابن النفيس بكلمة (فاضل) ليشير بها إلى الكمال الخلقى الناتج من (ناطق) التى تمثل الجانب المعرفى من الإنسان الذى تميز أصلاً بالنطق .. فكانت المعارضة بدءاً من العنوان !

وتحت العنوانين ، نجد اختلاف ابن النفيس مع ابن سينا على خط مستقيم ، فهو يبدأ قصته ببطلها المسمى (كامل) الذى تخلق ذاتيًّا داخل مغارة رطبة ، كانت له كالبيضة بالنسبة للفرخ ، ثم يتجاوز مرحلة المعرفة الحسية إلى طور المعرفة العقلية عند بلوغه الشبيبة ، فتجنح آنذاك على شاطىء جزيرته سفينة ، يرمزبها ابن النفيس للعناية الإلهية والهداية .. ثم يبدأ (كامل) بتقرير ضرورة النبى ، و ينطلق من ذلك إلى تقرير العديد من القضايا المترتبة على ذلك (٢٦) .

كما تتميز (فاضل بن ناطق) بخروج ابن النفيس من الإطار الفلسفى الضيق لنظرية الفيض وترتيب العقول العلوية ، إلى النظرة الشاملة التى تضم العقيدة الشرعية وتنظيم العمران البشرى والدلائل العلمية على ضرورة فناء العالم الأرضى .

ولما كان المقام يضيق عن تفصيل وتوضيح سائر الجوانب الفلسفية المتضمنة فى رسالة ابن النفيس ، فسوف نكتفى بما أجمله العمرى ضمن ترجمته لابن النفيس فى (مسالك الأبصار) حين قال : وقد رأيت له كتاباً صغيراً ، عارض به رسالة حى بن يقظان لابن سينا ، ووسمه بكتاب (فاضل بن ناطق) ، وانتقد فيه لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع والبعث الجسمانى وخراب العالم ، ولعمرى لقد أبدع فيها ودلّ على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية (٢٧) .

* نظرية الإبصار:

فى كتابه (المُهذَّب فى الكحل المجرب) يقدم ابن النفيس تصوره لكيفية الإبصار على النحو المنهجى الذى عرضنا لخطواته فيما سبق ، و بقى أن نعرض لفحوى النظرية كما قدمها ابن النفيس .

يبدأ ابن النفيس بنقد أشهر رأيين فى كيفية الإبصار، الرأى القائل إن الرؤية تتم بشعاع يخرج من العين ، والرأى المضادُّ الذى يقول بوصول شبح المرئى إلى العين .. و يرى ابن النفيس أن الرأى الأول باطل ، أما الرأى الثانى فهو غير كاف لتفسير عملية الإبصار التى يتصورها ابن النفيس على النحو التالى :

---

(٢٦) ابن النفيس : الرسالة الكاملية ، ص ١٦٦ وما بعدها .

(٢٧) العمرى : مسالك الأبصار، ص ٢٢٧ .

إن شبح المرئيات يقع فى العين الروح النافذ إلى المقلة ، فينقله إلى داخل الدماغ ما يسميه ابن النفيس (الروح المؤدى) فى زمان لا يحس ، و يتطابق الشبحان الواردان من كل مقلة ، فيكون انتهاء ذلك أمام القوة الباصرة فى آن واحد ، كشبح واحد ؛ولذلك تُدرك المرائى واحداً ـ فيلاقى الشبح فى الدماغ خيال مُختزن ، وتتم الملاقاة بنوع من الحركة القسرية ، التى من خلالها يتم (الشعور) بالأشياء المرئية (٢٨) ، فالإدراك يتم بملاقاة المدرِك والمدرَك ، واشتراك فعل العين مع فعل الدماغ .. فهل كان ابن النفيس مدركاً لطبيعة عمل المجارى البصرية Optic tracts داخل الدماغ ، وعملية انفعال المنطقة البصرية من المخ ؟

أغلب الظن ، أن ابن النفيس أقام هذه النظرية بنوع التركيب الذهنى الذى يسمح له بتفسير عدة أمور:

(١) إن عملية الإبصار لا تحدث عند تلف جزء من المخ أو عدم قدرته على القيام بوظيفته ، مع سلامة العين .

(٢) إن الإدراك البصرى لا يتم فى حالة الاستغراق الذهنى ، رغم وقوع شبح المبصرات على العين .

(٣) إن العين ـ كحاسة ـ هى وسيلة تحصيل الإدراك فى معظم الأحوال ، لكن الإدراك يمكن بدونها فى حالات خاصة ، كما فى الأنبياء ومن يقرب منهم .

وعلى هذا النحو، يحاول ابن النفيس وضع نظرية فى الإبصار، تكون كافية لتفسير الإدراك الحسى من جهة ، والقدرات الخارقة من جهة أخرى .. وهى نظرية جديرة بالنظر والتأمل .

* العلاجات:

أشار بعض معاصرى ابن النفيس إلى أنه على وفور علمه بالطب وإتقانه لفروعه وأصوله ، كان قليل البصر بالعلاج ، فإذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه ، ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء ، ولا مركباً ما أمكنه الاستغناء بمفرد .. وهذه التهمة واضحة التهافت ، وما سيق للتدليل عليها يشهد ببراعة ابن النفيس ، ولا يقدح فيه ؛

---

(٢٨) ابن النفيس : المهذب فى الكحل المجرب ، ص ٨٦ وما بعدها .

فقد أدرك ابن النفيس تلك القوة الهائلة الكامنة فى الجسم ، والتى تنزع بطبيعتها إلى التخلص من المرض ، فكان منهجه العلاجى يقوم على استنفار تلك القوة ، معتمداً على ما هو طبيعى ، فإن عجزت القوة دفعها بالصناعى والمركب .

والمتصفح لمؤلفات ابن النفيس ، كثيراً ما يقابل وصفه للطرق المبتكرة فى العلاج ، وقد ذكر مُحَقِّقَا كتابه (المُهذَّب) بعض إبداعاته العلاجية ، كما تظهر فى النص المحقق فذكرا على سبيل المثال ، تعديله لعمليات القدح فى العين ، وتطوير الآلات المستخدمة فيها ، وإجراءه للمرة الأولى فى التاريخ عملية مص المِدَّة الكامنة فى البيت الأمامى بالمُهت المجوف . ثم عدَّد المحققان (الجديد فى طب العيون عند ابن النفيس) فذكرا ما يقرب من أربعين مسألة تظهر خلالها الجوانب العلاجية الإبداعية عند ابن النفيس ، منها عشرون مسألة فى عملية قدح الماء .

ولننظر فى أشهر إبداعات ابن النفيس . . . .

*** الدورة الدموية (الرئوية) :**

وهى الاكتشاف الذى قامت عليه شهرة ابن النفيس بين معاصرينا ، مع بداية الربع الثانى من القرن العشرين . فقد كان الطبيب المصرى محيى الدين التطاوى فى بعثة علمية لإعداد رسالة الدكتوراة بجامعة فرايبورج الألمانية ، فوقع مصادفة على مخطوط لابن النفيس بعنوان (شرح تشريح القانون) فاكتشف بعد سبعة قرون ، أن ابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، فقدَّم رسالته للدكتوراه وأفصح فيها عن هذا الاكتشاف ، فتشكك أساتذته هناك ، وأرسلوا إلى المستشرق ماكس مايرهوف يستفتونه ، فأفتى بعد حين بأن المعلومات صحيحة .. فنال التطاوى مع درجة الدكتوراه ، فضل الكشف عن هذه المسألة ، وبيان سَبْق ابن النفيس على هارفى بعدة قرون .

وتفصيل الدورة الدموية الرئوية عند ابن النفيس ، يمكن الرجوع إليه فى العرض الذى قام به ابن النفيس بعنوان : فصل فى تشريح القلب (٢٩) .. وفى الاستعراض الذى قام به الدكتور بول غليونجى فى كتابه القيم الموجز عن ابن النفيس (٣٠) .

---

(٢٩) ابن النفيس : شرح تشريح القانون ، ص ٣٨٦ وما بعدها .
(٣٠) د/ بول غليونجى : ابن النفيس ، ص ١٠٩ وما بعدها .

وقد أثار هذا الاكتشاف مشكلة مترتبة عليه ، مؤداها : هل مارس ابن النفيس التشريح ؟ وقد جاءت إجابات المستشرقين بالنفى ، ثم قدم الدكتور بول غليونجى العديد من أدلة الإثبات .. لكن السؤال الأهم هنا : هل عرف ابن النفيس الدورة الدموية الكبرى ؟

ثالثاً ـ الدورة الدموية الكبرى :

تشير الكتابات الخاصة بعملية اكتشاف الدورة الدموية إلى الدورة الرئوية فقط ، فقد جاءت رسالة التطاوى للدكتوراه بعنوان : الدورة الدموية الرئوية تبعاً للقرشى «Der Lungenkrislauf nach el Korasch»

وجاءت أبحاث مايرهوف على نفس المنول ، فكتب عن هذا الموضوع بالألمانية **Ibn an - Nafis und Seine Theoris das Lungenkr islauf** وبالفرنسية **La decvoverte de la Circulation pulmonaire par Ibn an - Nafis** وبالإنجليزية **Ibn an - Nafis and his Theory of the lesser - Circulation.** ومن خلال هذه العناوين يتضح أن المسألة تخص الدورة (الرئوية) فقط ، وهو نفس ما نراه فى كتاب بول غليونجى عن ابن النفيس بسلسلة أعلام العرب .

وفى مخطوطة ابن النفيس (رسالة الأعضاء) نراه يقول : « والقوى تقوم بأجسام ، ويجب أن تكون تلك الأجسام لطيفة جداً ؛ ليمكن أن تنفذ إلى الأعضاء الطرفية من مبادئ تلك القوى بسرعة ، وهذه الأجسام هى الأرواح [31] ، وهذه الأرواح لا شك أنها تكون سريعة التحلل ، فصّحت ضرورة أن يكون فى البدن ما يستقل بتوليدها كُلّ وقت ، ليقوم المتولّد منها مقام ما تحلّل ؛ وذلك هو القلب ، وقد جُعل فى قرب الوسط ؛ لأنه أولى المواضع بالتّجوّز ، وليكون ما صفا منه من الروح متوجهاً إلى الأعضاء على الوجه العدل » [32] . ثم يعاود ابن النفيس تفصيل الأمر فى رسالته الكاملية ، فيقول مانصه : « وشاهد القلب فى الصدر و بطنه الأيمن مملوء بالدم ،

---

(٣١) يقول ابن النفيس فى توضيحه لمعنى (الأرواح) ما نصه : لا نعنى بها النفس كما يُراد بها فى الكتب الإلهية ، بل نعنى بها جسماً لطيفاً بخارياً ، يتكون من لطافة الأخلاط ، كتكون الأعضاء من كثافتها . والأرواح هى الحاملة للقوى ، فلذلك أصنافها (الأرواح) كأصنافها (القوى) .. انظر: الموجز فى الطب ، ص ٣٥ .

(٣٢) ابن النفيس: رسالة الأعضاء (النص المحقق) ص ٩٩

وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح فى الشرايين إلى الأعضاء ، ثم ينبسط فترجع تلك الروح فيه ، وحينئذ ينجذب إليه الهواء من الرئة ، وهى تجذب الهواء من خارج ، فينفذ بها من الأنف والفم ماراً فى الحنجرة وقصبة الرئة ، وذلك إذا انقبضت الرئة ؛ وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك الحجاب وعضلات الصدر لها (٣٣) .

وإذا أضفنا لهذين النصين ، بعض نصوص ابن النفيس الواردة فى (رسالة الأعضاء) كقوله فى بداية الفصل الثامن : « والجوهر الروحى ممتلىء بالهوائية .. » (٣٤) ، وقوله عن ضرورة حركة الشرايين : « ولولا ذلك ، ما كان يمكن أن ينبسط الشريان و ينقبض » (٣٥) ، وملاحظته فى بداية الفصل الخامس عشر : « إن كل ما له دم ، فله قلب » (٣٦) .

فمن خلال هذه النصوص يمكن لنا أن نضع الصورة المتكاملة لتصور ابن النفيس للدورة الدموية الكبرى ؛ فهو بعد أن وضع تصوره للدورة الرئوية حيث يتحرك الدم من القلب إلى الرئة ، ثم يعود محملاً بالهواء ، فهنا لا يقال عنه إنه دم ، بل أرواح (إذ الجوهر الروحى هو الممتلىء بالهوائية) ثم يجتمع الغذاء مع الهواء بهذه الأرواح التى يصفها بأنها (حاملة القوى) و ينقبض القلب الذى لابد من وجوده فى كل حيوان له دم ، فتنتشر هذه الأرواح فى الجسم عبر الشرايين ، التى تنبسط هى الأخرى وتنقبض ليسهل نفوذ الأرواح إلى الأعضاء الطرفية من القلب (الذى جُعل فى الوسط ؛ لأنه أولى المواضع بالتجوّز) و بعد ذلك ينبسط القلب ، فتعود إليه الأرواح بعد تغذية الأعضاء ؛ لتندفع مرة أخرى بعد أن تمتلئ بالهواء والغذاء .. وهكذا .

وقد وقع ابن النفيس فى بعض الأخطاء : منها عدم قدرته على اكتشاف الشعيرات الدموية الواصلة بين الشرايين والأوردة ، والتى تحتاج رؤيتها لأدوات لم

---

(٣٣) ابن النفيس : الرسالة الكاملية ، ص ١٥٥ .
والغريب هنا ، أن محقق الرسالة الكاملية لم يلحظ أن كلام ابن النفيس يدور حول الدورة الدموية الكبرى ، فاقتصر المحقق فى أحد فصول مقدمته ، على الحديث عن الدورة الدموية الصغرى ، واكتفى بنقل كلام د/ بول غليونجى فى كتابه عن ابن النفيس ، ووضع المحقق ذلك تحت عنوان : ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الرئوية (الرسالة الكاملية ــ مقدمة التحقيق) .

(٣٤) رسالة الأعضاء، ص١٣٨

(٣٥) رسالة الأعضاء، ص١٠٩

(٣٦) رسالة الأعضاء، ص١٧٨

تكن متوفرة فى عصره ، ولذلك فهو لم يفطن إلى أن رجوع الدم إنما يكون فى الأوردة وليس الشرايين ، كما أخطأ فى عدم إدراكه لطبيعة امتصاص الغذاء فى الخملات المعوية ، وقوله إن هذا الامتصاص يكون فى الكبد ؛ ولذلك قال إن الأوردة المتصلة بالكبد هى التى تحمل الغذاء ؛ ومع ذلك ، فقد وضع ابن النفيس تصوراً مبتكراً وجديداً للدورة الدموية الكبرى ، واستطاع أن يقترب من طبيعة حركة الدم فى الجسم ، وهى الحركة التى وضع هارفى شكلها النهائى فى مؤلفه (دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم فى الحيوان) وهو المؤلف الذى ظهر سنة ١٦٢٨ ميلادية ، بعد أن كانت مؤلفات ابن النفيس قد ترجمت إلى اللاتينية ، فكانت هذه الترجمات واحدة من الطرق التى انسرب منها الطب العربى إلى الغرب [٣٧] ؛ ليستكمل الغرب الأبحاث الطبية ، و يصل إلى ما وصل إليه اليوم .

وهكذا يرجع الفضل لابن النفيس فى بيان الخطوط العريضة لدورتَىْ الدم فى الجسم ، بحيث يُضاف اكتشافه للدورة الدموية الكبرى ، لما سبق أن توصل إليه التطاوى من معرفة ابن النفيس بالدورة الدموية (الرئوية) و بذلك تكتمل الدائرة الخاصة بحركة الدم .. ولكن ، ما السر فى سهو التطاوى وماكس مايرهوف وغليونجى ـ ومن جاء بعدهم ـ عن معرفة اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الكبرى ، واقتصارهم على الحديث عن الدورة الصغرى فحسب ؟ .. والإجابة عن ذلك تكمن فيما يلى :

(١) أنهم اعتمدوا فقط على كتاب (شرح تشريح القانون) وهو من مؤلفات ابن النفيس المبكرة ، والسابقة على (رسالة الأعضاء) ولم تتح الفرصة للتطاوى ، ولا لغيره ، أن يطّلع على تلك المؤلفات التى وضعها ابن النفيس فى أخريات حياته .

(٢) إن ابن النفيس قد اقتصر على وصف الدورة الصغرى فى (شرح التشريح) لأنه كان يتناول تشريح أعضاء الصدر، فلم يتجاوز ذلك إلى غيره ؛ لارتباطه بما ورد أصلاً فى قانون ابن سينا ؛ ومن هنا التزم ببيان حركة الدم داخل القفص الصدرى .. ولعل ابن النفيس لم يكن قد توصل بعدُ للدورة الدموية الكبرى حين كتب شرح التشريح .

---

(٣٧) د/ بول غليونجى : ابن النفيس ، ص ١٤٨ .

و بعد .. فلا يزال البحث حول جوانب إبداعات ابن النفيس مفتوحًا ، فنحن الآن على وشك الدخول فى مخطوطات موسوعته (الشامل فى الصناعة الطبية) ولا نستطيع أن نتنبأ بما يمكن أن نجده فيها .. ومن يدرى ، فربما استطاع ابن النفيس أن يخلص إلى تصور أشمل وأكثر دقة لدورتىْ الدم ، خاصة وأن (الشامل) هو آخر مؤلفاته وأكثرها نضجاً .

ونعود الآن إلى تلك المشكلة التى أثارها اكتشاف ابن النفيس لدوران الدم ، وهى المشكلة التى أشرنا إليها فيما مضى فى شكل السؤال : هل مارس ابن النفيس التشريح ؟

رابعاً ــ مشكلة التشريح :

حاول العديد من المستشرقين أن ينفوا اشتغال ابن النفيس بالتشريح ، حتى يضمنوا بذلك أن اكتشافه للدورة الدموية كان بنوع من التصور والتخيل وليس بالممارسة العملية ، و بالتالى يكون الفضل الحقيقى راجعاً إلى هارفى وغيره من الأوروبيين الذين مارسوا التشريح بالفعل . وقد استند هؤلاء المستشرقون ، من أمثال مايرهوف والدوميلى إلى دليلين :

الأول : أن التشريح كان محرَّماً فى العالم الإسلامى من قِبَل رجال الدين والسلطان .

الثانى : أن ابن النفيس يقول فى بداية شرح تشريح القانون : أما التشريح فقد صدّنا عنه وازع الشريعة وما فى أخلاقنا من الرحمة .

وفى كتابه عن ابن النفيس ، يقول بول غليونجى : « إننا إذا افترضنا أن هناك ملفاً وهمياً بعنوان (هل مارس ابن النفيس التشريح ؟) فإن هناك بعض المستندات التى تؤكد ممارسته للتشريح ، بحيث تصير عبارته فى بداية شرح التشريح ، هى مجرد : « حبر على ورق » (٣٨) ، والمستندات التى يقدمها بول غليونجى هى :

(١) إن ابن النفيس يقول فى بعض المواضع : والتشريح يكذب ما قالوه .. وهى عبارة تؤكد ممارسته للتشريح .

---

(٣٨) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) إن عبارة ابن النفيس فى بداية شرح التشريح ، تنفى ممارسته له ، حرصاً منه على مشاعر رجال الدين .. وابن النفيس فى ذلك ، كما يقول بول غليونجى : شأنه شأن كثيرين من العباقرة المجددين أمثال كوبرنيكوس وجاليليو ، عندما استهلوا مؤلفاتهم الثورية بتأكيد تبعيتهم للعقائد الدينية السائدة فى عصرهم (٣٩) .

ثم ينقل الدكتور ماهر عبد القادر محمد هذا الملف إلى كتابه (مقدمة فى تاريخ الطب العربى) ليضيف إلى المستندات المؤكدة ممارسة ابن النفيس للتشريح ، مستندين ، هما :

(١) إن ابن النفيس يقول إنه (شاهد) المرارة كثيراً ، وذلك ما نجده عند سلمان قطايه فى كتابه عن ابن النفيس .

(٢) قول ابن النفيس إن ابن سينا كان يعتقد أن القلب به ثلاثة بطون « وهذا كلام لا يصح ، فإن القلب له بطنان فقط » وهو المستند الجديد الذى يقدمه الدكتور ماهر (٤٠) .

والحقيقة .. فإن لدينا من الحجج القوية ، ما يثبت أن ابن النفيس قد مارس التشريح بالفعل ؛ وهذه الحُجج هى باختصار:

(١) إن التشريح لم يكن له هذا التحريم الشرعى إلا فيما يخصُّ الأحياء ، وكلنا يذكر عبارة عثمان بن عفان : وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟

(٢) إن الأطباء المسلمين قبل ابن النفيس مارسوا التشريح على الحيوانات جهراً ، ولم يجد معاصروهم غضاضة فى ذلك .

(٣) إن ابن سينا (الشيخ الرئيس) يقول للطبيب فى كتابه (القانون) ما نصه : « وأما الأعضاء ومنافعها ، فيجب أن تصادفها بالحسِّ والتشريح » (٤١) .. وهى عبارة صريحة كما نرى .

(٤) إن ابن النفيس يكشف من دقائق الجسم ، ما لا يمكن معرفته إلاَّ بالتشريح ،

---

(٣٩) بول غليونجى : ابن النفيس ، ص ١٢٨ .

(٤٠) د/ ماهر عبد القادر محمد على : مقدمة فى تاريخ الطب العربى ، ص ١٢٨ .

(٤١) ابن سينا : القانون فى الطب (طبعة بولاق) المجلد الأول ، ص ٥ .

وهو يُقرن مكتشفاته هذه بالإشارة إلى أنه أول من توصل إليها ، أو أنها غير منقولة عمن سبقه .

وقد رأينا لذلك أمثلة لا حصر لها فى مؤلفات ابن النفيس ، منها عدة أمثلة فى (شرح فصول أبقراط) حيث يتناول أجزاء الأسنان فيقول إنها « أجزاء عَظمِيَّة ، وعَصَبِيَّة ، ورِبَاطِيَّة .. يُعْرَف ذلِك مِن تشريح أسْنان الحَيَوانات الكبيرة » (٤٢) وحين يتناول تلافيف ومجارى الكلية (٤٣) ، وحين يتناول حركة الهواء الخارج من الرئة ومروره بالحنجرة وحدوث الصوت (٤٤) .. وكلها أوصاف لا تكون إلاّ بعد مشاهدة لهذه الأعضاء مشاهدة لا تكون إلاّ بالتشريح .

(٥) كانت دار ابن النفيس مفروشة كلها بالرخام ، كما مرَّ علينا فيما سبق .. وكان ذلك أمراً غريباً آنذاك ؛ لذا توقف عنده العُمَرى المؤرخ . أفلا يشير ذلك إلى احتفاظ الرخام بما يُراد تشريحه مدّة أطول ، وإلى سهولة تنظيفه بعد التشريح !
وإذا أضفنا لذلك أن ابن النفيس لم يكن متزوجاً ، وأنه كان مديراً لواحدة من أكبر مستشفيات القاهرة آنذاك ، وأنه عاصر انتشار أوبئة كانت تترك الجثث بالجملة ــ أدركنا أن التشريح كان بالنسبة له أمراً ميسوراً ، وأن مزاولته له هى أمرٌ مؤكَّد .

(٦) إن عبارة ابن النفيس فى بداية (شرح التشريح) تقول : « وقد صَدَّنا عن مباشرة التشريح ... إلخ » وهى عبارة ، إن لم تكن قد قيلت ذرًّا للغبار فى أعين العامة والفقهاء ، فإنها تشير إلى أن (الصَّدّ) عن مباشرة التشريح ، كان من بعد مزاولته زمناً .. خاصة وأنه قد أفرد بحثاً لفوائد علم التشريح (٤٥) .

---

(٤٢) ابن النفيس : شرح فصول أبقراط ، ص ٤٤٠

(٤٣) شرح فصول أبقراط ، ص ٤٢٩

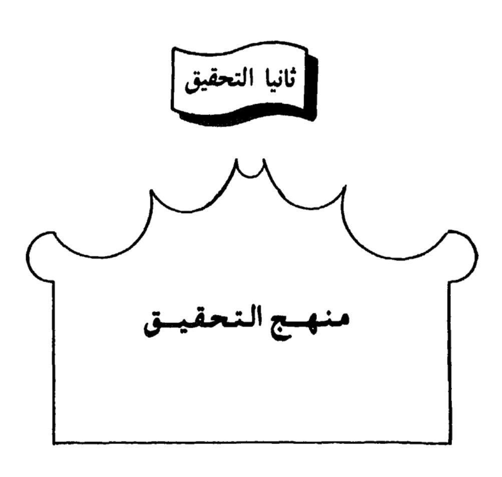
(٤٤) شرح فصول أبقراط ، ص ٥٠٧

(٤٥) يقول ابن النفيس فى البحث الثانى من شرح تشريح القانون (ص ٢١ من طبعة د/ سلمان قطاية) ما نصه :
« فى فوائد علم التشريح .. انتفاع الطبيب بهذا العلم ، بعضه فى العلم ، وبعضه فى العمل ، و بعضه فى الاستدلال . أما انتفاعه فى العلم والنظر ، فذلك لأجل تكميله معرفة بدن الإنسان ؛ ليكون بحثه عن أحوال وعوارضه سهلاً . وأما انتفاعه بالعمل فن وجوه : أحدهما أنه يعرف به مواضع الأعضاء فيتمكن بذلك من وضع الأضمدة ونحوها حيث يسهل نفوذ قواها إلى الأعضاء المتضررة . وثانيها أنه =

ومما تقدم يتضح لنا ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن ابن النفيس قد مارس التشريح على الأجساد الميتة .. أما تشريح الأحياء ، فذلك ما نستبعد قيامه به . ولو كان فعل ، لكان قد صحّح تلك الأخطاء التى وقع فيها ، حين قال بدور الكبد فى عملية الهضم ، وبأن البطين الأيسر فى القلب لا يتحرك ، وإنما يتحرك الأيمن فقط ؛ وهو ما ذكره فى (شرح تشريح القانون) .. ولا نعرف ما إذا كان ابن النفيس قد صحّح ذلك فى مؤلفاته المتأخرة ، أم ظل على هذا الاعتقاد الخاطئ علمياً .

= يعرف به مبادئ شعب الأعضاء ونحوها ، ومواضع تلك المبادئ ، فيتمكن بذلك من وضع الأدوية على تلك المبادئ ، إذا تحقَّق أن شعبها قائدة إليها . وثالثها أنه يعرف به هيئات الأعضاء ، وهيئات مفاصلها ، فيردُّها إلى هذه الهيئات الطبيعية إذا عرض لها خروجٌ عن ذلك بخلع أو نحوه . ورابعها أنه يعرف به أوضاع الأعضاء بعضها من بعض ، فلا يحدث عند البطّ ونحوه ، قطع شريان أو عصب ، كذلك لا يقطع ليف بعض العضلات فى البطّ ونحوه ، وذلك لأجل تعرفه مذاهب ألياف العضل .. وأما انتفاع الطبيب بالتشريح فى الاستدلال ، فذلك قد يكون لأجل سابق النظر ، وقد يكون لغير ذلك » .

.. فهل يمكن بعد ذلك كله ، القول بأن ابن النفيس لم يمارس التشريح ؟!


ثانيا التحقيق
منهـج التحقيـق

نستعرض فيما يلى ، أهم خطوات عملية تحقيق النص ، مع إشارة إلى أهميته ، والملاحظات التى بدت لنا أثناء تحقيقه ، ليكون ذلك مُعيناً على الدخول إلى النص ، وقراءته قراءة صحيحة .

رسالة الأعضاء :

ضمن مجموعة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية ، وقعتُ بالمصادفة على مخطوطة (رسالة الأعضاء) والتى تعدُّ من مؤلفات ابن النفيس المجهولة ، فلم يذكرها واحدٌ من المؤرخين أو المفهرسين على الإطلاق ، وبالرجوع إلى ترجمات ابن النفيس كلها ، بالإضافة إلى أعمال المفهرسين من أمثال حاجى خليفة والبغدادى والزركلى وكحالة وبروكلمان ، لم نجد لها ذكراً ... بل إن فهارس دار الكتب التى تحفظ المخطوطة ، لم تذكر عنوان الرسالة فى البطاقات ، واكتفت بذكر المخطوطة الأولى فى المجموعة (الرسالة الكاملية) دون غيرها .

ومع ذلك ، فنسبة هذه الرسالة لابن النفيس لا شك فيها ، فهى منسوبةٌ إليه صراحة فى بداية المخطوطة وخاتمتها ، وجاء فيها ذكر مؤلفات أخرى لابن النفيس ، منها (شرح تشريح القانون) مما يعنى أن تأليف (رسالة الأعضاء) كان تالياً لتأليف شرح التشريح ، وهو ما يظهر من نضج بعض القضايا التى تعرضها الرسالة .. فعلى سبيل المثال ، إذا كان ابن النفيس قد أشار فى (شرح التشريح) إلى الدورة الدموية الكبرى ؛ على النحو الذى عرضنا له فى الدرسة السابقة . وإذا كان الرئوية ، فهو يحاول فى هذا الكتاب استكمال الصورة ، بوضع تصوره عن الدورة الدموية الكبرى ؛ عى النحو الذى عرضنا له فى الدراسة السابقة . وإذا كان فى شرح التشريح قد اكتفى بوصف الأعضاء وبيان تركيبها ، فإنه فى رسالة الأعضاء يربط بين هيئة العضو وتركيبه ، وبين وظيفة العضو.

ورسالة الأعضاء ليست ثابتة النسبة لابن النفيس فحسب ، بل أننا نعتقد أن هذه النسخة الخطية قد كُتبت بخط ابن النفيس نفسه ، فمع وجود بعض الأخطاء النحوية اليسيرة فى المخطوطة و وجود إشارة فى آخر المجموعة الخطية تقول (من تأليف مولانا ...) إلا أننا نرجّح أن تكون المجموعة بخط ابن النفيس للأسباب الآتية :

(١) النسخة مؤرخة بسنة ٦٧٣ يعنى فى حياة ابن النفيس ، وقبل وفاته بسنوات طويلة .

(٢) بدأت الرسالة بقوله : « قال الفقير إلى الله ، على ابن أبى الحرم القَرَشى عفا الله عنه .. » . وهى بداية تدلُّ على أن الناسخ هو المؤلف ؛ إذ جرت عادة النساخ والتلاميذ أن يبدءوا النسخة بعبارات مثل : قال الحكيم الأجل ، العلامة الرئيس ، الفاضل الكامل .. ونحو ذلك من الأوصاف ، وهذا مانراه فى سائر مؤلفات ابن النفيس ، حتى المكتوبة فى عصره .

(٣) تبدو كلمات المخطوطة وكأنها مكتوبة بسرعة وتعجُّل ؛ حتى إن بعض الكلمات غير واضحة ، فكُتبت بنفس الخط فى هامش الصفحات .
وقد وصف لنا العمرى طريقة ابن النفيس فى الكتابة ، فقال : « كان إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية ، و يدير وجهه إلى الحائط ، و يأخذ فى التصنيف إملاء من خاطره ، و يكتب مثل السيل إذا تحدّر ، فإذا كلَّ القلم وحفى ، رمى به وتناول غيره ، لئلا يضيع عليه الزمان فى بَرْي القلم » .. وإذا تأملنا طريقة كتابة المخطوط ، فى النماذج التى سنقدمها بعد قليل ، يتضح لنا أن المخطوطة كُتبت على هذا النحو الذى يصفه العُمَرى .

(٤) كان من عادة النُّسّاخ أن يذكروا فى الهامش الأسفل اليمنى ، أول كلمة تأتى فى الصفحات اليسرى ، خوفاً من اضطراب ترتيب الأوراق ، وهذه الخاصية نجدها فى معظم المخطوطات العربية ، وفى مؤلفات ابن النفيس الأخرى التى كتبها النُّسّاخ أو التلاميذ . أما فى هذه المخطوطة ، فلا توجد هذه الظاهرة ، كما لا يوجد ترقيم للصفحات ، مما يؤكد أنها لم تكتب بخط ناسخ محترف أو تلميذ من تلامذة ابن النفيس المباشرين أو غير المباشرين ، وإنما كتبها المؤلف الذى لم يلتفت إلى هذه الأمور الشكلية فى غمرة كتابته التى هى : مثل السيل إذا تحدّر .

و يبقى بذلك إشكال تلك الأخطاء النحوية اليسيرة ، وتلك العبارة الواردة بالورقة الأخيرة من المجموعة والتى تقول (من تأليف مولانا علاء الدين ...) فأما الاشكال الخاص بتلك الأخطاء النحوية القليلة ، فربما كانت نتيجة التعجُّل فى الكتابة ، أو هى ليست عند ابن النفيس من الأخطاء ؛ إذ قال المؤرخون إنه كان يخالف أهل النحو فى بعض القضايا . وأما إشكال العبارة الأخيرة ، وكلمة (مولانا) الواردة فى نهاية المجموعة ، فقد كُتبت خارج السطور بحبر خفيف و بخط لا يتطابق تماماً مع الخط الذى كُتبت به المجموعة ، وبهذا يتأكد أن تلك العبارة الأخيرة قد كُتبت من بَعْد ..

وعلى أى الأحوال ، فإذا لم تكن المخطوطة بخط ابن النفيس نفسه ، فهى لم تخرج من عصر مؤلفها ، ولم يُعَدْ نسخها من مخطوطة سابقة عليها ، وهذا كله يُعلى من قيمة المخطوطة .. خاصة وأنه لا توجد فى العالم نسخة أخرى منها .

وصف المخطوطة :

توجد هذه المخطوطة الوحيدة من (رسالة الأعضاء) ضمن المجموعة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة (تحت رقم ٢٠٩/ مجاميع) وهى تحتوى على ثلاث رسائل لابن النفيس : الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية ــ المختصر فى علم أصول الحديث ــ كتاب رسالة الأعضاء .. وهى جميعاً بنفس الخط والقلم ، فيما عدا ورقة العنوان التى كتبت بخط مخالف (انظر الصورة فيما يلى) .

وتبدأ المجموعة بالمختصر فى علم الحديث ، تليه الرسالة الكاملية ، ثم رسالة الأعضاء . وقد وقعت رسالة الأعضاء فى ثلاثين ورقة من القطع الكبير، الورقة الواحدة صفحتان (٣٠×٢٢ سم) تحتوى كل صفحة على ١٤ سطراً ، و يضم السطر الواحد ١٢ كلمة فى المتوسط .

وتبدأ رسالة الأعضاء بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الفقير إلى الله تعالى على بن أبى الحرم القَرَشى ، عفا الله عنه .. » (انظر الصورة فيما يلى) وتنتهى بعبارة : تَـمَّ كتاب رسالة الأعضاء بحمد الله وحسن توفيقه ، وذلك فى رابع شهر ربيع الأول .. من شهور سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، أحسن الله خاتمتها .. » (انظر الصورة) .

والمخطوطة بحالة لا بأس بها ، لا توجد بها أية كلمات ساقطة أو مطموسة طمساً تاماً ، وإنما يخفُّ الحبر أحياناً فتأتى الكلمات باهتة بعض الشيء . ومعظم الحروف غير منقوطة وساقطة الهمزة ، خاصة فى الصفحات الداخليه ، وهى الصفحات التى امتلأت بنقط حمراء غريبة ، تبدو كأنها دواء لحفظ المخطوطة من العتة والأرضة ، وقد تناثرت هذه النقط الحمراء بين السطور وهوامش الصفحات من الورقة الثالثة وحتى الورقة الأخيرة .

عمل المحقِّق :

يمكن تلخيص الجهد الخاص بتحقيق نصِّ الرسالة ، فى المجموعة التالية من النقاط :

(١) قراءة النص بتركيز شديد ، مع الاستعانة بسابق معرفتنا بأسلوب ابن النفيس فى كتبه الأخرى ومقارنة ماورد فى الرسالة بما هو وارد فى (شرح التشريح) و (الموجز) للاطمئنان على صحة العبارات ، خاصة فى تلك المواضع الباهتة وغير المنقوطة .

(٢) وضع الفواصل والنقط وتقسيم الفقرات ، مع الإشارة إلى رقم أوراق المخطوطة بهامش النص المحقَّق ؛ ليسهل الرجوع إلى الأصل للمراجعة .

(٣) تخريج المصطلحات والمفردات الواردة فى النص ، والتعليق على بعض المواضع التى تحتاج للتعليق والشرح .

(٤) عمل فهرس للمفردات الفنية والطبية بآخر الكتاب .

ملاحظات التحقيق

هناك بعض الملاحظات التى استرعت انتباهنا عند تحقيق النص ، منها :

(١) تمثل هذه الرسالة حالة فريدة فى مؤلفات ابن النفيس ، من حيث كونها المرة الوحيدة التى يُهدى فيها ابن النفيس أحد مؤلفاته لشخص من معاصريه .
و يبدو أن ابن النفيس كان شديد الإعزاز لهذا الرجل (حسام الدين خليل أمير المؤمنين) حتى إنه أورد من ألقابه الكثير ، وكلها ألقاب تنتهى بياء النسب (١) .

---

(١) يقول القَلْقَشَنْدِى : الألقاب الملحق بها ياء النسب ، كالأميرى والقضائى والعالمى والكبيرى ، تارة يُراد بها النسب الحقيقى ، وتارة يُراد بها المبالغة . . والأصل فى ذلك أن عادة العرب أنهم إذا أرادوا =

(٢) شرع ابن النفيس فى تأليف هذه الرسالة بعد الانتهاء من (شرح تشريح القانون) و (شرح كليات القانون) وشروحه المبكرة على كتب أبقراط، وبذلك تكون هذه الرسالة من مؤلفات ابن النفيس المتأخرة، والسابقة مباشرة على تأليف موسوعة الشامل فى الصناعة الطبية .. أو التى تم تأليفها أثناء تأليف الشامل.

(٣) من المُلفت للنظر أن النُّسَّاخ قد أهملوا هذا النص ـ رغم طرافته وأهميته ـ فلم يتناولوه بالكتابة والنسخ، مما أدى إلى انزوائه فى هذه المجموعة المنسية. كذلك فالمؤرخون قد أغفلوا تماماً الإشارة إليه ضمن مؤلفات ابن النفيس، مع أن نسبة الكتاب له ثابتة ولا جدال فيها، كما بيَّنا فيما سبق.

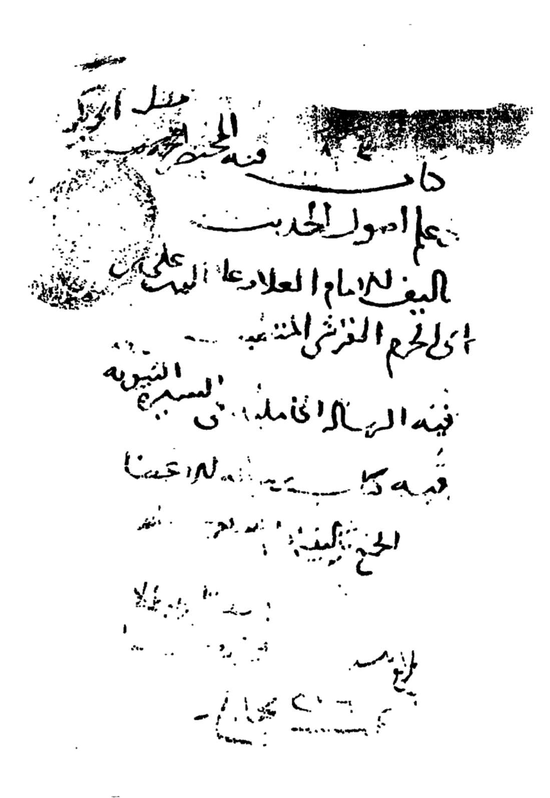
(٤) لم يقتصر ابن النفيس فى هذه الرسالة على الجانب الطبىّ البحت، وإنما تناول العديد من القضايا السيكولوجية والاجتماعية، وتطرّق إلى ما يسمى بعلم الفِراسَة (٢).

نماذج المخطوطة:

نقدم على الصفحات التالية بعض النماذج من مخطوطة رسالة الأعضاء، و يلى ذلك النص المحقق لها.

= المبالغة فى وصف شىء، أدخلوا عليه ياء النسب فى آخره للمبالغة فى وصفه. وألقاب المجلس السامى فما فوقه، تُثبتُ الياء فى آخرها، فيقال فى ولى الدين «الولوى» وفى ناصر الدين «الناصرى» وفى حسام الدين «الحسامى» وهكذا (صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هجرية) الجزء الخامس، ص ٥٠٣.

(٢) انظر البحث القيم الذى وضعه الدكتور/ يوسف مراد فى الفراسة عند العرب وتطورها من اليونان إلى مفكرى الإسلام ثم العصر الحديث، بعنوان (الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب) وفى تعريف موجز للفراسة يقول التهانوى:
«الفراسة هى الاستدلال بالأمور الظاهرية على الأمور الخفية؛ وعلم الفراسة المعدود فى فروع العلم الطبيعى، هو علمٌ بقوانين تُعرف بها الأمور الخفية بالنظر فى الأمور الظاهرة، وموضوعه العلامات والأمور الظاهرة فى بدن الإنسان (كشاف اصطلاحات الفنون ـ كلكتا ١٨٦٢ م ـ دار قهرمان باستانبول، المجلد الثانى، ص ١١٢٣).



الورقة الأولى من المجموعة ــ صفحة العنوان

(صورة مصغرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير الى الله تعالى علي بن ابي الحرم القرشي عفا الله عنه

[illegible]

[illegible]

الدين خليل امير المومنين [illegible]

[illegible] وهذه الرسالة مشتملة على معارف

حقيقية ومعان حكمية في منافع الاعضاء [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] على فصول الفصل الاول [illegible]

الاعضاء منها مفردة ومنها مركبة فالمفردة كالعظام والغضاريف

والرباطات والاعصاب والاوتار والاغشية والشرايين والاوردة

واللحم والشحم [illegible]

الصفحة الأولى من الرسالة

(مصغرة)

[illegible] والعقيق والشمر موجود في [illegible]

[illegible] مثل السنباذج [illegible] ويحك به [illegible]

[illegible] الماس في مثال العصفور [illegible] مثل [illegible]

[illegible] واعني العقيق صغيرا وكبيرا [illegible]

[illegible] فقط وبعضها الأربعة وبعضها ثمانية [illegible]

[illegible] كالذي يكون عند الحجارة وأخوات [illegible]

[illegible] الإنسان [illegible] العرض [illegible]

[illegible] النيل يقوم له مقام البادزهر [illegible]

تم الكتاب [illegible]

بحمد الله وحسن توفيقه

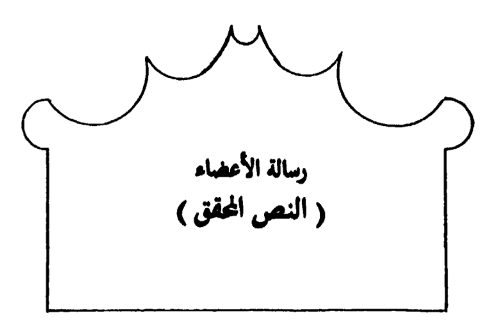
وذلك في رابع شهر ربيع

[illegible] من شهور سنة ثلاث وتسعين

وسبعمائة [illegible]

الورقة الأخيرة

(مصغرة)


رسالة الأعضاء
(النص المحقق)

بسم الله الرحمن الرحيم [١أ]

قال الفقير إلى الله تعالى، على بن أبى الحرم (١) القَرَشى، عفا الله عنه:
إنّ المقـام (٢) العالى (٣)، المَوْلَوى، الَلبيرى (٥)، السّفهسْلارى (٦)، المُجَاهدى (٧)، المُرابطى (٨)، المُؤيّدى (٩)، المُظفرى (١٠)،

---

(١) راجع ما قلناه عن التصحيف الواقع فى هذا الاسم، بالفصل الأول من الدراسة السابعه.

(٢) يقول القلقشندى فى معرض تقسيمه للأمراء من أرباب السيوف:
وهم على أربع طبقات، الطبقة الأولى (مقدمو الألوف) وعدة كل منهم مائة فارس.. وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء، وهذه الطبقة هى أعلى مراتب الأمراء (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤/٤).

(٣) العالى، من الألقاب التى يشترك فيها أرباب السيوف والأقلام، يوصف به: المقام والمقر والجناب والمجلس.. وهو من العلاء (صبح الأعشى ٢٠/٦).

(٤) المولى، من ألقاب الكُتّاب، والمولوى نسبة إليه للمبالغة. وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف والأقلام، يقول القلقشندى: ولا يُكتب به عن السلطان لأحد (صبح الأعشى ٣١/٦).

(٥) ألبيرة: منطقة كبيرة فى بلاد الأندلس، من مدنها قسطيلية وغرناطة، يقال لها أيضاً: يَلْبيرة ولَبيرة (معجم البلدان ٢٤٤/١) ينسب إليها العديد من رجال العلم فى كل فن، فنهم: أسد بن عبد الرحمن الألبيرى.. أبوخضر حامد بن الأخطل اللبيرى، وأحمد بن عمر اللبيرى (معجم البلدان ١٢/٥) وقد ذكرها ابن قلاقس فى شعره حين قال:
وَتَرَكْتُ بُقْطُسَ مَعْ لَبيرَى جَانِباً
وَرَكِبْتُ جَوْناً كَاللّيالى الجُون

(٦) الإسْفِهْسِلار، من ألقاب أرباب السيوف. وكان فى الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلى الباب، ومعناه (مقدّم العسكر) وهو مركب من لفظين: فارسى وتركى، فإن «إسْفة» بالفارسية بمعنى المقدّم، و«سِلاّر» بالتركية بمعنى العسكر والسّفهسْلاّرى، نسبة إليه للمبالغة (صبح الأعشى ٧/٦).

(٧) المُجاهد، من الألقاب السلطانية. والمُجَاهدى نسبة إليه.

(٨) المُرابِط، من الألقاب السلطانية، وهو مفاعل من «الرباط» وهو ملازمة ثغر العدو، والمرابطى نسبة إليه للمبالغة.. وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كنواب السلطان ونحوهم (صبح الأعشى ٢٧/٦).

(٩) المؤيد، بفتح الياء المشددة، من الألقاب السلطانية. والمؤيدى (بالفتح) من الألقاب الملوكية نسبة إلى المؤيد، وبالكسر: من ألقاب أكابر أرباب السيوف، نسبة إلى المؤيد (بالكسر) للمبالغة.. (صبح الأعشى ٣٢/٦).

(١٠) المظفر، من الألقاب السلطانية، أخذاً من الظفر والنصر. والمظفرى نسبة إليه للمبالغة، وهو من ألقاب أرباب السيوف (صبح الأعشى ٢٨/٦).

الـمَنصُورى (١١) ، العَالِمى (١٢) ، العَادِلى (١٣) ، الحُسَامِى (١٤) : حُسام الدين خليل أمير المؤمنين (١٥) ؛ لازال محروس الجناب (١٦) ، عالى الركاب ؛ أجَلُّ من أن يُـخدم بـالأشياء الـدنيئة الدنياوية . وهذه الرسالة مشتملة على معارف حقيقية ، ومعـان حكمية فى منافع الأعضاء الإنسانية ومواضعها ، وفى الاستدلال من هيئتها على خلاقه وأحواله . فرأيت أن أخدم بها جرايته العالية ، لأشرفها باسمه ، وأعلى قدرها برسمه .

وقد رتبتها على فصول :

---

(١١) نسبة إلى المنصور قلاوون (حاكم مصر آنذاك) .

(١٢) العالم ، من ألقاب السلطان . يقول القلقشندى : ثم هو فى الحقيقة ، إنما هو من ألقاب العلماء ، إلا أنهم نعتوا به الملوك تعظيماً ، والعالمى نسبة إليه للمبالغة . وهو من الألقاب المشتركة فى الاصطلاح بين أرباب السيوف والأقلام ، وإن كان المختص به فى الحقيقة هم العلماء (صبح الأعشى ١٩/٦) .

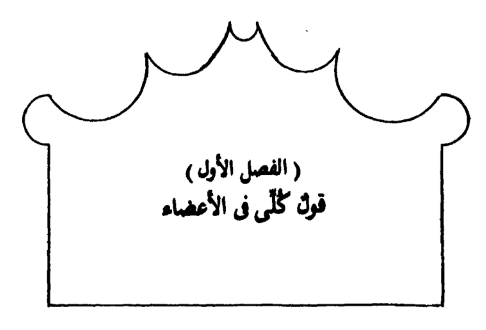
(١٣) العادل ، من ألقاب السلطان ، والعادلى نسبة إليه للمبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف والنُّواب ونحوهم (صبح الأعشى ١٩/٦) .

(١٤) الحُسامى ، مبالغة فى الوصف ، نسبة إلى حسام الدين .

(١٥) خليل أمير المؤمنين ، من ألقاب أولاد السلطان . وربما كتب به بعض الملوك ، والخليل هنا بمعنى الصديق (صبح الأعشى ٤٧/٦) .

ويبدو أن هذا اللقب ، اختص به الوزراء . فقد ترجم ابن الصيرفى فى كتابه (الإشارة إلى مَن نال الوزارة) للعديد من الوزراء الذين حلوا لقب : خليل أمير المؤمنين ، وألقاباً أخرى مشابهة .. (انظر : القانون فى ديوان الرسائل والإشارة إلى مَن نال الوزارة ، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد ـ الدار المصرية اللبنانية ، ص ٨٢ وما بعدها) .

(١٦) الجناب ، من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعاً ، وهو أعلى ما يُكتب للقضاة والعلماء من الألقاب ، ويُكتب لمن يجرى مجرى الوزراء ، ولبعض الملوك المكاتبين عن الأبواب السلطانية . ويقال فيه : الجناب الشريف العالى ، الجناب الكريم العالى ، الجناب العالى (صبح الأعشى ٤٩٥/٥) .



(الفصل الأول)
قوىً كُلّى فى الأعضاء

الأعضاء منها مفردة ، ومنها مركبة . فالمفردة كالعظام ، والغضاريف [1] ، والرباطات [2] ، والأعصاب ، والأوتار ، والأغشية ، والشرايين ، والأوردة ، واللحم ، والشحم ، والسمين ، والجلد .

وأما المخ ، والرطوبات الجليدية والزجاجية والبيضية [١ب] [3] ، فالأولى أن تُجعل من أقسام الرطوبات لا من الأعضاء .

وأما الظفر والشعر ، فإنهما ـ وإن كانا أشبه الأشياء بالأعضاء ـ فهي من الأجزاء الكمالية ، فليست بالحقيقة أعضاء .

وأما الأعضاء المركبة ، فنها ما تركيبها تركيبا [4] أولياً كالعضل ، ومنها ما تركيبها تركيباً ثانياً كالعين ، ومنها ما تركيبها تركيباً ثالثاً كالوجه ثم الرأس مثلاً .

---

(١) الغضاريف Cartilagines أنسجة ذات تركيب مجهري خاص (انظر : معجم المصطلحات ص ٤٨٢ ـــ المعجم الطبي ص ١٤٠) .

(٢) انظر الأنواع المختلفة من الرباطات Ligaments في : المعجم الطبي الموحد ص٣٧٩ : ٣٧٢ ، وراجع ما سيقوله ابن النفيس عنها فيما بعد .

(٣) يقول ابن النفيس في معرض كلامه عن أجزاء مقلة العين : وفي داخلها رطوبات ثلاث وأرواح كثيرة ، وهذه الرطوبات أوسطها وأشرفها « الرطوبة الجليدية » وهي رطوبة صافية كالجليد والبرد في لونها ، ومن وراء هذه الرطوبة « الرطوبة الزجاجية » وهي على لون الزجاج الذائب ، ومن قدام الجليدية ، الرطوبة الأخرى وهي « الرطوبة البيضية » لأنها كبياض البيض بياضاً وإشفافاً (المهذب في الكحل المجرب تحقيق د/ محمد الوفائي ، ود/ محمد رواس قلعة جي ص ٦٥ ، ٦٦) .
وكلمة « جليدية » هي المعنى الحرفي لاسمها اليوناني : قريسطالويزاس ، وتسمى اليوم : العدسة Christalinelens والرطوبة الزجاجية ، هي المعنى الحرفي لاسمها اليوناني : أيالويزاس ، وتسمى اليوم : المائع الزجاجي أما الرطوبة البيضية ، فهي المعنى الحرفي لاسمها اليوناني : أوويزاس ، وتسمى اليوم : الخلط المائي Aqueous Hunor (راجع : هوامش تحقيق المهذب ، المعجم الطبي الموحد ص ٦٠ و٣٦٤ و٣٧٢) .

(٤) (تركيبا أوليا) : حبر وصفه له ، ويجب رفعها ، ولكن المؤلف نصبها خطأ كما ترى ، وكذلك فعل في (تركيبا ثانيا) و(تركيبا ثالثا) .

ونقول أيضاً ، الأعضاء منها رئيسة ، إما بحسب الشخص ، وهى ثلاثة (٥) : القلب والدماغ والكبد . وإما بحسب النوع ، وهى أربعة : الثلاثة المذكورة ، والانثيان (٦) .. هذا هو المذهب المشهور ، وأما رأينا فيه ، فقد بيّناه فى كتابنا فى شرح كتاب القانون للشيخ الرئيس ، أبى على بن سينا ، قدس الله روحه (٧) .

ومن الأعضاء أعضاء مرءوسة ، فنها ما هى خادمة للرئيسة ، إما خدمة مهيئة كالمعدة ، أو خدمة مؤدية كالأوردة (٨) .. ومنها ما هى غير خادمة كاللحم الحسّاس .

وربما كان بعض الأعضاء رئيساً ومرءوساً ، كالدماغ والكبد والانثيين (٩) . وربما كان بعضها غير رئيسة ولا مرءوسة ، كالعظم .. وتحقيق الحق [٢أ] فى هذا مذكور فى ذلك الكتاب فليُرجع إليه (١٠) .

وقد خلقت الأعضاء غير منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وإلاّ كان

---

(٥) غير واضحة فى الأصل .

(٦) الأنثيان Orchis : الخصيتان ، وهى أيضا : الأذنان (لسان العرب ١ / ١١١)

(٧) ابن سينا :

وهو الفيلسوف الطبيب ، أبوعلى الحسين بن سينا ، الملقب بالشيخ الرئيس .. أشهر الأطباء المسلمين على الإطلاق ، ولد ٣٧٠ وتوفى ٤٢٨ هجرية (انظر ترجمته فى : تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ٥٢ - ٧٢ ، تاريخ الحكماء للشهرستانى ٤١٣ — ٤٢٦ ، الكامل فى التاريخ ٩ / ٤٥٦ ، عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ٤٣٧ — ٤٥٩ ، وفيات الأعيان ٢ / ١٥٧ ، الذريعة ٢ / ٤٨ ، المختصر فى أخبار البشر ٢ / ١٦١ ، العبر ٣ / ١٦٥ ، دول الإسلام ١ / ٢٥٥ ، ميزان الاعتدال ١ / ٥٣٩ ، تتمة المختصر ١ / ٥١٩ ، عيون التواريخ ١٥ / ١٥٩ ، الوافى ١٢ / ٣٩١ ، إغاثة اللهفان ٢ / ٢٦٦ ، مرآة الجنان ٣ / ٤٧ ، البداية والنهاية ١٢ / ٤٢ ، الجواهر المضية ٣ / ٦٣ ، طبقات الفقهاء ٧٠ ، تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ٣٢٥ ، الشقائق النعمانية ١ / ٤٧٥ ، لسان الميزان ٢ / ٢٩١ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٢٥ ، تاج التراجم ١٩ ، خزانة الأدب ٤ / ٤٦٦ ، شذرات الذهب ٣ / ٢٣٤ ، روضات الجنات ٣ / ١٧٠ ، إيضاح المكنون ٢ / ٢٥٥ ، هدية العارفين ١ / ٣٠٨ ، أعيان الشيعة ٢٦ / ٢٨٧ ، سير أعلام النبلاء ١٧ / ٥٣١ ، معجم المؤلفين ٤ / ٢٠ .

DeboerEncyclopedie de L 'islam I 444- 446, De Slane: Catalogue des manuscrits arabes 519, Ahlwardt: Verzeichniss TV 382 Brockelmann: Giescheichte I, 452.

وتوجد بالإضافة لذلك ، مئات البحوث والدراسات والمقالات المعاصرة ، تتناول فى مجموعها جوانب حياة ابن سينا وإبداعه العلمى والفلسفى . أما إشارة ابن النفيس الواردة هنا فالمقصود منها ما ورد فى كتابه المنشور بعنوان : شرح تشريح القانون ، حيث تناول فى مقدمته بعض المباحث الخاصة بالاعضاء ومنافعها (انظر : شرح تشريح القانون ، تحقيق د/ سلمان قطايه ص ١٧ وما بعدها) .

(٨) فى الأصل : كالأوردة لها .

(٩) غير واضحة فى الأصل .

(١٠) غير واضحة فى الأصل .

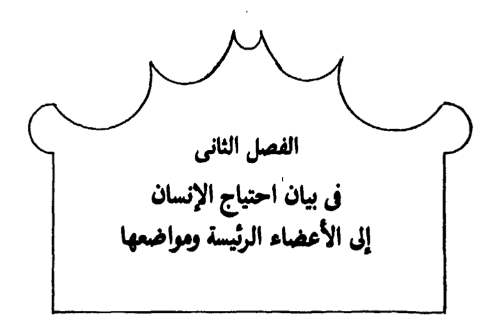
كل واحد منها حيواناً مستقلاً بنفسه، ولم يكن من الجملة شيء متصل لنفس (١١) واحدة، وغير متصلة بعضها ببعض تمام الاتصال من كل جهة، وإلاّ لم يمكن أن يتم للحيوان أفعاله، بل يكون كالكرة.

وخلق بعضها عظيماً كالفخذ، و بعضها صغيراً كالأنملة. وذلك بحسب ما تقصد العِلّة -على ما بيناه فى كلامنا فى التشريح (١٢)- ولذلك جُعل بعضها مصمتاً و بعضها مجوفاً، و بعضها من أجزاء كثيرة، و بعضها ليس كذلك.

---

(١١) غير واضحة فى الأصل.

(١٢) يقول ابن النفيس :
قد منع قوم من الأولين منافع الأعضاء، وقالوا إنها لم تُخلَق لمنفعة بعينها، وإنما وجدت بالاتفاق.. والحق أن هذا باطل، وأن الله تعالى - وإن كان لا يفعل لغرض - فأفعاله لا تخلو عن الحِكَم، ولولا ذلك لكان هذا الوجود عبثاً، وذلك محال (شرح تشريح القانون ص ٢٥).



الفصل الثانى

فى بيان احتياج الإنسان إلى الأعضاء الرئيسة ومواضعها

إنما يتم كون الإنسان إنساناً، بل حيواناً (١)، بأن تكون له قوة الحسّ والحركة الإرادية. وذلك لأن كونه من الأركان (٢)، وصحته وحيويته باعتدالها، ومرضه وفساده بخروجها عن الاعتدال، فلابد أن يكون له شعورٌ بما يحفظ اعتداله، ليستعمله و يدنو منه (٣)، وبما يفسد مزاجه ويخرجه عن الاعتدال، فيهرب منه.

والقوى ـ كما بيّناه فى الحكمة (٤) ـ هى صور نوعيته، فإنما يمكن أن تقوم بأجسام [٢ب]، ويجب أن تكون تلك الأجسام لطيفة جداً؛ ليمكن أن تنفذ إلى الأعضاء الطرفية من مبادئ تلك القوى بسرعة، وهذه الأجسام هى الأرواح (٥). وهذه الأرواح لا شك (٦) أنها تكون سريعة التحلل، فصحت ضرورة أن يكون فى البدن ما يستقل بتوليدها كل وقت، ليقوم المتولد منها مقام ما تحلّل.. وذلك هو

---

(١) الحيوان: كل كائن حى، ذى حركة وإرادة، و يدخل فى ذلك الإنسان، فهو الحيوان الناطق العاقل.

(٢) الأركان (الأربعة) نظرية فلسفية قديمة، وضع أصولها الفلاسفة اليونانيون الأوائل حيث أرادوا تفسير العالم بمبادىء وأصول محدودة، فانتهت مسيرتهم الفلسفية الميتافيزيقية إلى تقرير أربعة مبادىء للوجود، هى: الهواء، الماء، التراب، النار.. وقد انتقلت هذه النظرية إلى الأطباء فى شكل نظرية الأخلاط الأربعة: الدم، البلغم، الصفراء، السوداء، وظلت نظريتا (الأركان الأربعة) و(الأخلاط الأربعة) دعامة أساسية للفكر الفلسفى والبحوث الطبية حتى عصر ابن النفيس.

(٣) فى الأصل: و يدنوا.

(٤) الإشارة هنا إلى واحدٍ من مؤلفات ابن النفيس فى الحكمة.. وهو مؤلَّف مجهول لا نعرف له أية نسخ خطية.

(٥) انظر تعريف ابن النفيس للأرواح الوارد فيما بعد، حيث يقول: «الأرواح أجسام لطيفة جدا، لتمكن أن تنفذ إلى الأعضاء الطرفية..» و يقوم تصور ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى، كما عرضه مؤلفاته، على أساس انتقال الدم المحصل بالأرواح من الرئة إلى القلب، ليتولى القلب دفعه بعد ذلك (راجع: شرح تشريح القانون ص ٢٩١ وما بعدها).

(٦) غير واضحة فى الأصل.

القلب ، وقد جُعل فى قرب الوسط ؛ لأنه أولى المواضع بالجوز(٧) ، وليكون ما صفا منه من الروح متوجهاً إلى الأعضاء على الوجه العدل ولم يمكن أن يكون القلب صلباً جداً - كالعظم - وإلا كان أرضياً بارداً ، فلا يصلح لتوليد الروح ، فاحتيج ضرورة أن تحتفّ (٨) به أجسامٌ صلبةٌ لتحفظه وتكنّه ، وتلك هى عظام الصدر والأضلاع .. ولم يُجعل ذلك عظماً واحداً لئلا يثقل ، فلا يمكن الانبساط والانقباض الذين (٩) نذكر وجه الحاجة إليهما عن قريب .

وأيضاً ، فهذا العضو المولِّد للروح لا يمكن أن تصدر عنه أفعال الحسّ والحركة ؛ لأنهما إنما يصدران عن مزاج قريب من الاعتدال .. وخصوصاً الأفعال السياسية (١٠) ، والعضو المولِّد للروح يجب أن يكون حاراً جداً ، ضرورة أن الروح يجب أن تكون حارة المزاج [٣أ] ؛ لتمكن أن تكون لطيفة خفيفة ؛ إذ البرد يلزمه الثقل والغلظ .

والمولِّد للحارّ حارٌّ(١١) لا محالة ، فاحتيج - ضرورة - إلى عضو معدِّل للروح ؛ ليمكن أن يصدر عنها أفعال الحسّ (١٢) والحركة الإرادية .. وذلك إنما يكون بارد المزاج ؛ إذ المعدِّل للحارّ باردٌ لا محالة ، وذلك هو الدماغ .. وقد جُعل إلى أعلى البدن (١٣) ؛ لتكون حركة الروح - المتولِّدة فى القلب - إليه أسهل ؛ لأجل العينين ، الذين (١٤) سنبين أنهما لابد وأن تكونا فى أعلى (١٥) البدن ، ولابد أن تكونا قريبتين من الدماغ .

وأيضاً ، إنما يمكن تكوُّن البدن من جسم رطب ، ليكون قابلاً للتشكل (١٦)

---

(٧) يقصد : جواز الأرواح من القلب إلى أعضاء الجسم . وهنا نجد الإشارة إلى الدورة الدموية الكبرى حيث ينتقل الدم المحمل بالأرواح من القلب ــ بعد عودته من الرئة ــ إلى جميع أعضاء الجسم .

(٨) مقروءة بصعوبة فى الأصل .

(٩) هكذا فى الأصل ، وصوابها إملائيا : اللذين .

(١٠) يقصد أفعال الحس والحركة التى تقوم بتكييف حالة الجسم تبعاً للبيئة المحيطة به ، كالعرق .

(١١) فى الأصل : حارا .

(١٢) يستخدم ابن النفيس كلمة (أفعال الحس) ليعنى ما نسميه اليوم بالأفعال المنعكسة reflex actions

(١٣) فى الأصل : أعلا .

(١٤) هكذا فى الأصل ، وصوابها : اللَّتَيْن .

(١٥) فى الأصل : أعلا .

(١٦) غير واضحة فى الأصل .

والتمدُّد بسهولة ، ولابد من حرارة تعقده وتنضج غذاه وتحلّل فضلاته . والحرارة إذا ما زجت (١٧) الرطوبة ، حللّتها لا محالة ، فاحتيج - ضرورة - إلى الغذاء ليسدَّ بدل ما يتحلّل ، وللنمو.

وليس يوجد جسمٌ مستعدٌ لصور الأعضاء بسهولة ، ومن غير أن يفضل منه فضول كثيرة ، فاحتيج - ضرورة - إلى عضو تنطبخ فيه الأغذية مع الماء المشروب ، طبخاً تتصغر به أجزاؤها (١٨) ، ويمكن تخلصها من الفضول (١٩) العديمة الاستعداد للتغذية . فيمكن حينئذ أن يتصفى خالصها (٢٠) ، و ينفذ إلى عضو يحيلها إلى صورة تستعد بتنقيها (٢١) لقبول صور الأعضاء[٣ب]، وذلك هو الكبد .. وذلك لأن الغذاء ، لو نفذ على حاله إلى الأعضاء ، وقدرت قوة (٢٢) كل عضو على إحالة الوارد إلى طبيعته ، لبقى عند كل عضو فضول كثيرةٌ ، إن لم تندفع عنه أضرّت بمزاجه ، وإن اندفعت من حيث جاءت ، أضرّت بالغذاء الوارد ، وإن جُعل لكل عضو مخرجٌ للفضول ، غير مدخل الغذاء إليه ، ومنفذ إلى خارج البدن ، وجب أن يكون البدن متخلخلاً جداً ، كالحال فى الإسفنج ، وذلك موهن للتركيب . بل ولا يقوى كل عضو على إحالة الوارد إلى طبيعته بدون أن يكون قد تقدم ما بعده لذلك ؛ لأن العضو الذى يقوى على ذلك يحتاج أن تكون قوته المحيلة قوية . وإنما ذلك إذا كان مزاجه موافقاً لذلك ، ولا يمكن أن تكون الأعضاء كلها كذلك ؛ لأن منها ما يجب أن يكون بارداً - كالعصب - ومنها ما يجب أن يكون صلباً (٢٣) كالعظم .

ولا يمكن أيضاً أن يكون فعل المعدة والكبد كعضو واحد ؛ لأن إحالة الوارد عن صورته ، إنما تتم بأن يكون المُحيل له كالملاقى بكليته كليته (٢٤) ، ليكون فعله فيه

---

(١٧) الكلمة فى هامش الصفحة .
(١٨) فى الأصل : أجراها .
(١٩) فى الأصل : عن .
(٢٠) خالص الغذاء ، هو ما يعرف عند الأطباء باسم الكيموس chyme ، وتتم عملية التكيمس chymification عند انقلاب الطعام إلى كيموس ، إذا انهضم فى المعدة ولم ينصرف منها بعد .
(٢١) غير واضحة فى الأصل .
(٢٢) غير واضحة فى الأصل .
(٢٣) غير واضحة فى الأصل .
(٢٤) العبارة باهتة وغير مقروءة فى الأصل .

قـو ياً . وذلك إنما يمكن بأن يكون قد تصغَّرت أجزاؤه ، وتصفى عن الفضول المانعة من ذلك ؛ لينفذ فيه فى عروق ضيقة جداً ، على ما هو الحال فى الكبد (٢٥) .

ووُضع [٤ أ] الكبد فى جانب البدن ؛ ليكون قريباً من المعدة ، التى سنبين أنها لابد وأن تكون فى الوسط ، وإنما احتيج إلى تقريب (٢٦) الكبد من المعدة ؛ ليكون وصول المنطبخ إليها سهلاً .

وإذ الكبد يجب أن يكون فى جانب من البدن ، فيجب أن يكون فى اليمين ؛ لأنه أشرف . . وقد جاء فى « التعليم الأول » (٢٧) أنه وجد إنسان ، كان كبده فى اليسار وطحاله فى اليمين .

ونقول إنه لا يمكن أن يكون هذا الفعل الذى للكبد ، صادراً عن القلب أو الدماغ وإلاَّ وجب أن يفسد مزاج الروح .

وأيضاً ، إذ الشخص الإنسانى لا يمكن بقاؤه ، ما بقيت السموات والأرض ، ولا يمكن تكوُّن مثله بالتولُّد فى كل وقت كما تتولَّد كثيرٌ من الحشائش ، وجب -ضرورة- أن يحفظ نوعه بالتناسل ، فيجب أن يكون له عضو تتولَّد فيه مادةٌ تصلح لأن يتولَّد منها شخص آخر، ليبقى النوع محفوظاً بتعاقب الأشخاص . . وتلك المادة هى المَنِىُّ ، وذلك العضو هو الانثيان .

ويجب أن يكون هذا العضو فى أسافل البدن ، إذ المَنِىُّ من جملة الفضول ، وسنبين أن أعضاء الفضول يجب أن تكون [٤ ب] فى جهة مقابلة لجهة مداخل الغذاء إنما يجب أن تكون فى أعلى (٢٨) البدن .

---

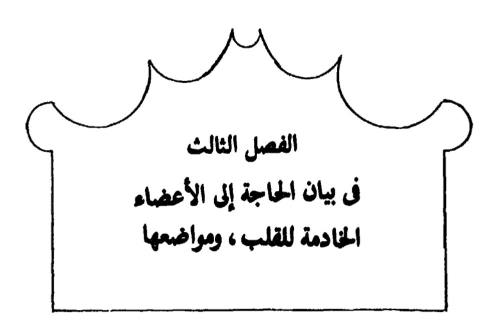
(٢٥) يستخدم ابن النفيس هنا ، ما يعرف عند المناطقة باسم (برهان الخُلْف) وهو برهان أرسطى ، يقوم على إثبات صحة قضية ببطلان نقيضها .

(٢٧) يذكر ابن سينا فى التعليم الأول من الفن الثانى من (القانون فى الطب) مجموعة الأمراض والأسباب والأعراض الكلية . وفى الفصل الثالث من هذا (التعليم الأول) يتناول « أمراض التركيب » أى تركيب الأعضاء ، ومنها ما يسميه أمراض الوضع .. وقد بدأ ابن سينا بقوله : أمراض الوضع أربعة (انظر: القانون ، طبعة بولاق ١ / ٧٥) لكنه لا يذكر منها إلا ثلاثة ، ليس بها تلك الإشارة إلى ذلك الإنسان الذى كبده فى اليسار وطحاله فى اليمين ! وعلى ذلك فإن طبعة القانون التى بين ايدينا ، قد أسقطت هذه الفقرة التى أشار إليها ابن النفيس هنا !

(٢٧) الكلمة فى هامش الصفحة .

(٢٨) فى الأصل : أعلا .

ولا يمكن أن يكون فعل الأنثيين صادراً عن الدماغ ولا عن القلب ، وإلاّ تضررت الأرواح لمخالطة المَنِيّ ، ولا عن الكبد ، ضرورة أن يحتاج إلى زيادة ظاهرة فى النضج ليمكن التكوّن عنه بسهولة .



الفصل الثالث

فى بيان الحاجة إلى الأعضاء الخادمة للقلب ، ومواضعها

ولما كان الروح والقلب ، حارّىْ المزاج . وكان موضع القلب يجب أن يكون فى الوسط ؛ ليكون محفوفاً بأعضاء تحفظه من كل جانب ، فيبعد من الهواء الخارجى. وذلك مؤد لا محالة إلى اختناقه وإشغال (1) أرواحه ، فوجب ـ ضرورة ـ أن يرد (2) إليهما جسم يحفظ عليهما مزاجهما. ولا شك أن ذلك الجسم إن كان خفيفاً لطيفاً شفافاً مناسباً لطبيعة الروح ـ حتى لا تتكدر بمخالطته وممازجته ـ كان أولى ، والجسم الذى هو فى العالم كذلك ، هو الهواء .. وخصوصاً ، و برده ليس بعيداً عن مزاج الروح والقلب ، بحيث لا يؤذيهما بالمضادة .

واحتيج ضرورة إلى أن يمكن الهواء من الوصول إليهما فى أزمنة متقاربة [٥أ] ، فاحتيج ضرورة أن يكون له منفذ إليهما .. ولم يمكن أن يكون ذلك المنفذ متفرقاً (3) فى الأجسام المحيطة بالقلب ، وإلأ ضعف جرمها ، وضعفت عن دفع المصادمات الواردة إلى جهة القلب . فوجب أن يكون ذلك المنفذ واحداً ، وأن يكون بعيداً منه ، لما قلناه ، ولئلا يسرع (4) إليهما وصول الهواء الخارج عن الاعتدال .. إما فى البرد كما فى الشتاء ، أو فى الحرّ كما فى قوة الصيف ؛ فيؤذيهما .

ولما وجب أن يكون هذا المنفذ بعيداً ، لم يمكن أن يكون فى أحد (5) جهتى

---

(١) غير واضحة فى الأصل .
(٢) فى الأصل : يورد .
(٣) غير واضحة فى الأصل .
(٤) الكلمة فى هامش الصفحة .
(٥) هكذا فى الأصل ، والصواب (إحدى) .

البدن ؛ إذ بُعد الجهتين عن القلب قليلٌ جداً ، ولا من قدام وخلف كذلك ، ولا يمكن أن يكون فى أسافل البدن ؛ إذ سنبين أن تلك الجهة يجب أن تكون ممر الفضلات ، فكان الهواء النافذ إلى القلب والروح ، يخالط جداراتها و يتكيف برائحتها .. فوجب أن يكون هذا المنفذ فى أعلى(٦) البدن ، وذلك هو الأنف .

فوجب أن يكون للهواء الوارد ، منفذ متصل بالأنف إلى قرب القلب ، وأن يكون مستحصفاً(٧)، لئلا يتفرق منه الهواء النافذ ، وذلك : قصبة الرئة .

ويجب أن يكون هناك خزانة يتحفظ فيها الهواء الوارد ؛ ليتعدّل [٥ب] و ينفذ منها إلى القلب بقدر الكفاية فى ترويحاته المتتابعة ؛ (٨) إن انقطع الوارد ، لامتناع من الاستنشاق عند استعمال غذاء ، أو اشتغال بكلام أو كراهة بذلك الهواء ـ كالقرب من الجيف ـ أو لفساده كما عند الحصول على هواء عفن .

ويجب أن تكون هذه الخزانة متخلخلة ؛ ليتفرّق الهواء فى جرمها ، فيكون فعلها فيها أتمّ وأقوى . ويجب أن تكون بالقرب من القلب ، وهذا هو: الرئة .

ثم الهواء ليس يمكن أن يكون بطبعه ينفذ إلى القلب ؛ إذ قد بيّنا فى كتب أخرى أن الهواء بطبعه الحركة إلى جهة فوق ، فوجب أن يكون هناك ما يقسره على النزول إلى القلب ، فوجب أن تكون الأجسام المحيطة بالقلب ، بحيث(٩) تنبسط حتى يتسع الفضاء المحيط به ، فيجذب الهواء بالضرورة لاضطرار الخلاء ، وأن يكون لها أن تنقبض ليخرج الهواء الذى قد تسخّن و بطلت فائدته بعصرها له ، وليخرج بعدما يخلو(١٠) من جوهر الروح ، لئلا يضرها و يكدرها بمخالطته .

ولا شك أن حركة الانقباض ، مضادة لحركة الانبساط ، والحركات المتضادة لا يمكن أن تصدر إلا عن إرادة [٦أ] . فيجب أن تكون هذه الحركة إرادية . فاحتيج

---

(٦) فى الأصل : أعلا .

(٧) الحصيف فى اللغة ، المُحكم الذى لا خلل فيه ، يقال « ثوب حصيف » إذا كان محكم النسج ، والمستحصف : الضيق الشديد (لسان العرب ١ / ٦٥٤) .

(٨) العبارة مقروءة بصعوبة فى الأصل .

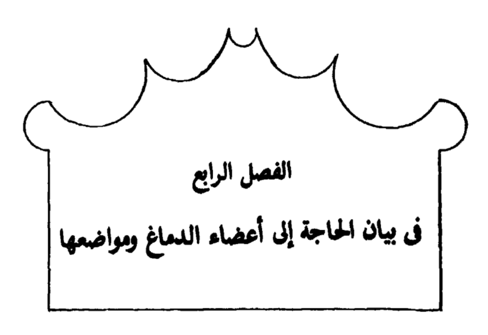
(٩) فى الأصل : أن .

(١٠) غير واضحة فى الأصل .

ضرورة إلى الحجاب ؛ ليكون كالمروحة بانبساطه وانقباضه ، وإلى عضلات الصدر ؛ لتعينه إذا احتيج إلى زيادة تنفس أو إلى زيادة تصويت [11] .

ولأن الروح يجب أن ينفذ إلى جميع البدن ، فاحتيج ضرورة إلى مجار تنفذ من القلب إلى جميع الأعضاء ، واحتيج أن تكون مستحصفة لئلا تتخلل منها الروح قبل الوصول إلى الأعضاء البعيدة ، وهذه المجارى هى : الشرايين .

(١١) يقصد ؛ الاحتياج إلى رفع الصوت . وقد ذكر ابن النفيس فى المقالة الأخيرة من شرحه على فصول أبقراط ، أنه قد تعرض بالتفصيل لعملية خروج الصوت من الحنجرة ، فى (المؤلفات الموسيقية) وهى مؤلفات مجهولة لم نقع على إشارة لها فى أى حصر ببليوجرافى .



الفصل الرابع

فى بيان الحاجة إلى أعضاء الدماغ ومواضعها

ولأن الدماغ معدِّل لحرارة الروح وناريتها ، فيجب أن يكون بارداً رطباً ، فيكون ليناً لا محالة ، فيجب أن تحيط به أجسامٌ صلبةٌ تكنُّه من الآفات ، وهى : عظام القحف .

ويجب أن يكون بينهما حاجز؛ لئلا يتأذى اللين بممارسة الصلب ، فإن الدماغ قد يرتفع إلى القحف - كما عند العطاس والصياح القوىِ - ويجب أن يكون هذا الحاجز متوسطاً بينهما فى الصلابة واللين ، ويجب أن يكون ما يلاقى منه العظام ، أصلب لا محالة مما يلاقى الدماغ . فلم يمكن أن يكون جسماً واحداً ؛ لأن تفاوت سَطْحَىْ الجسم الواحد [٦ب] فى الصلابة واللين ، إنما يمكن إذا كان بذلك الجسم ثخن يعتدُّ به ، وذلك مُـثقلٌ للدماغ لا محالة .. فخلق ذلك الحاجز من غشاءين ، الأصلب منهما من جهة القحف ، واللين من جهة الدماغ ، و يسمى : الأم الرقيقة .

ولما كان الدم الواصل إلى الدماغ ليغذوه ، لا يمكن أن ينصب إليه جملة ، وإلاَّ خنقه ، فاحتيج إلى أن يكون فى عروق صغار، فيكون انفعاله أتم وأسهل . واحتيج إلى أن تكون لها تعاريج ؛ ليطول تردُّد الدم فيها ، فينضج ، و يتشبه بجوهر الدماغ ، وذلك هو الشبكة .

ثم لما كان العضو البارد الرطب مما تكثر فضوله لعلّة تحلُّلها عنده ، وجب أن يكون له مدافعٌ لفضوله ولعرقه ؛ ليقوم بعضها مقام البعض إذا عرض له سُدَّةٌ من فضل غليط أو غيره . وخصوصاً والدماغ نفسه ، وأرواحه ، مما يتضرَّر بالفضول جداً ؛ لتكدر الروح بها .. التى يجب أن تكون فى غاية الصفاء لتجوُّد الإدراك والقبول ، والدماغ لرطوبتّه ولينه يتضرر بعفنها أو بحدتها أو ببردها أو تمديدها . وخصوصاً ووضع الدماغ ، فى موضع اتجاه الأبخرة مع برده المحيل للأبخرة إلى المائية [٧أ] .

فلذلك جُعل له منافذ إلى الأنف ، ومنافذ إلى الحنك ، فاحتيج ضرورة أن يكون العظم الذى هناك متخلخلاً ؛ لتنفذ فيه الفضول ، وذلك هو العظم المشاشى (١) ، ليحسِّن دماثية الدماغ (٢) . واحتيج أن ينثقب ؛ لتنفذ فيه الفضول ، وذلك هو : المصفاة (٣) .

ثم لما كان الغذاء يجب أن يكون شبيهاً بالمغتذى ، وجب أن يكون عند (٤) الدماغ من الدم المخالط للبلغم ، ومثل هذا مما يعسر إصعاده إلى موضع الدماغ . فاحتيج ضرورة ، أن يخالطه جزء صالحٌ من الصفراء ؛ لتُنفذه إلى جهة فوق . فإذا استعمل الدماغ غذاءه (٥) ، تميزت تلك الصفراء ، وكان فى دفعها من المخارج المذكورة (٦) إضرارٌ بها ، فوجب أن تندفع إلى مخرج أصلب منه .. وهو منفذ الأذن ، وكان فى ذلك منفعة أخرى ، وهى : أن يبقى هناك شىء مرٌّ ؛ ليقتل ما يدخل فيه من ذباب وغيره .

ثم لما كان الدماغ مبدأ لصدور أفعال الحسِّ والحركة الإرادية ، وجب أن تتصل به منافذ تجرى منها الأرواح الحاملة لتلك القوى ، وتلك هى : الأعصاب .

لكن ما كان من ذلك (٧) نافذاً إلى الأعضاء البعيدة ، كان معرضاً للانقطاع فى المسافة الطويلة ، فأبرز من الدماغ جرمٌ شبيهٌ به [٧ب] ؛ ليكون كالرسول والخليفة عنه ، وجعل النافذ إلى الأعضاء البعيدة متصلاً به ، وذلك هو : النخاع .. فاحتيج إلى جسم صلب يمكِّنه و ينفذ فيه ، وذلك هو : الصُّلب . فوجب أن يكون ملتئماً من إجزاء كثيرة ؛ إذ لو كان عظماً واحداً ، لم يمكن الإنسان الانثناء والانحناء .

ثم لما كانت الأعصاب (٨) لا يمكن أن تكون صلبة جداً ، وإلاَّ لم يمكن أن تنثنى وتنعطف عند تحريك الأعضاء ، وجب أن تكون لينة لدنة . فلو استند إليها تحريك

---

(١) مشاشة العظم osteo- epiphysis ، والمشاشى cancello صفة للعظام التى تتكون من ألياف وصفائح رقيقة تتصل بعضها ببعض ، بحيث تكون نسيجاً شبكياً (معجم المصطلحات العلمية ص ٦٣٦ ــ المعجم الطبى الموحد ص 452) .

(٢) فى الأصل : للدماغ .

(٣) المصفاة cribrum

(٤) غير واضحة فى الأصل .

(٥) فى الأصل : غذاه .

(٦) فى الأصل : المركورة !

(٧) يقصد ، من الأعصاب المتصلة بالدماغ .

(٨) فى الأصل : لم

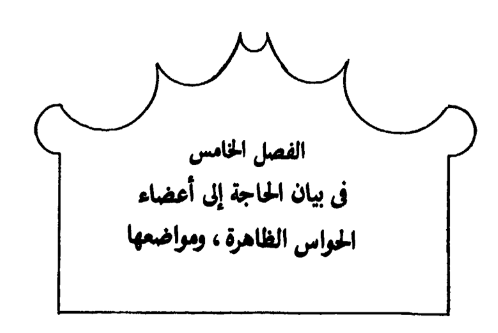
الأعضاء الثقيلة ـ وخصوصاً المساعدة ـ تعرضت الأعصاب للانقطاع .. فخلق لها أجسامٌ لدنةٌ شبيهةٌ بها ، تسمى الرباطات . وانتفشت هى والأعصاب ليفاً ، وحُشى ذلك المنتفش لحماً ، ليندعم و يبقى وضعه محفوظاً .. وذلك هو: العضل .

وفائدة ذلك (٩) ، أن يعتضد كل واحد منها بالآخر ، وفُتل طرف الليف المنتفش منها ـ الذى من جهة العضو المحرّك ـ فصار وترًا ، واتصل بالعضو المحرّك . وجُعل الرباط منفصلاً ، متصلاً بالعظام القريبة من موضع العضل ، حتى يكون العضل مستنداً ، فإذا تقلصت إلى نفسها جذبت الوتر ، فانقبض العضو . وإذا استرخت ، بسطت الوتر ، فانبسط العضو[٨أ] .

وتبارك الله أحسن الخالقين .

---

(٩) يقصد ، فائدة أن تحشى الأعصاب والرباطات لحما .



الفصل الخامس

فى بيان الحاجة إلى أعضاء الحواس الظاهرة ، ومواضعها

.. أما اللمس ، فيجب أن يعمّ الظاهر(١) كله ؛ ليكون لكل جزء ، حسٌّ بما يؤذيه و ينفعه من الأهوية الحارة والباردة وغيرها ، وذلك هو: الجلد .

لكن لما كان هذا العضو بمعرض التغير، لضرورة اندفاع المواد إليه عن دفع الطبيعة لها إلى خارج ، وذلك يؤدى إلى فساد الحسّ اللمسىّ عن ذلك الموضع . فجُعل أكثر اللحم الذى تحته حاسّاً ؛ ليقوم مقامه إذا عرض له فسادٌ من داخل البدن وخارجه .

وقد علمت أن قوة الحسّ والحركة الإرادية ، إنما تنفذ من الدماغ إلى الأعضاء فى الأعصاب ، فوجب (٢) أن ينفذ إلى الجلد ، وأكثر اللحم ، أعصاب تُفيدها قوة اللمس .

وأما البصر، فلما كان بمنزلة الطليعة ـ التى الأليق بها الموضع العالى ـ وجب أن تكون آلته فى أعالى البدن ، و وجب أن تكون فى مقدمته ، إذ ذلك أليق المواضع بالطلائع وتلك الآلة هى : العين .

ويجب أن يكون لها ما يكنُّها من حدوث الآفات ، ولكن لا يمكن أن تكون مستورة به دائماً ، وإلاّ بطلت فائدتها ؛ إذ الإبصار إنما يتم [٨ ب] إذا لم يكن بين المبصور و بين العين حجاب . فوجب أن يكون هذا الساتر من شأنه أن ينكشف عنها ، متى أريد أن تكون باصرة ، وأن يسترها متى أريد صيانتها . فخُلق لها الجفنان ، وأنبت منها شعرٌ؛ ليمنع ما ينحدر إلى العين حالة انكسافها ، وجُعل منتصباً لئلا يغطى العين .

---

(١) الكلمة فى هامش الصفحة .

(٢) فى الأصل : وجب .

وأما الشمّ ؛ فهو إحساس بالرائحة ، وهى كيفية الهواء المستحيل عن كيفية الجسم ذى الرائحة أو المخالط لبخاره . وذلك -لا محالة- إنما يمكن إدراكه بآلة لينة جداً لتمكن أن تنفعل عنه ، وتلك الآلة لا يمكن أن تبلغ إلى صلابة العصب ، وهى الزائدتان الشبيهتان بحلمتى الثدى (٣) . فظاهرٌ أنها لا يمكن أن تبعد عن الدماغ وإلا صلبت كما يصلب العصب ، فاحتيج أن تكون من داخل ؛ لئلا تصلب .. ولأن ذلك المكان أحرز، فوجب أن تكون للرائحة الواصلة منفذان إليها ، فوجب أن يكون ذلك هو عظم المصفاة ؛ لئلا تكثر المنافذ ، فتؤدى إلى وهن عظام الدماغ ، فيسرع إليها الانكسار.

وحينئذ ، يجب أن تكون تلك الزائدتان موضوعتين خلف عظم المصفاة ، واحتيج إلى الأنف ليتعدل فيه الهواء النافذ بالرائحة [٩أ] ، وليكون لما يخرج من الفضول ، سترًا ووقاية من الأبصار.

وقد خُلق الأنف من عظام ليكون صلباً ، فلا ينطبق فيفسد لو كان ليناً . وخُلقت تلك العظام رقيقة لئلا تثقل ، وخصوصاً وهو عرضة من الحسّ . وقسم باثنين ليضيق منفذه ، فلا يمكن دخول شىء من الحيوان -وغيره- إلى الدماغ .. ولو كان واحداً ضيقاً ، لم يكن فيه وفاء بما يحتاج إليه من الهواء المستنشق .

وأما الذوق ، فاحتيج إليه ليحرِّك القوة الشهوانية على استعمال الغذاء النافع ، و يصدّها عن الغذاء الضار. فوجب أن تكون آلته فى أول مدخل الغذاء ، الذى هو الفم .. وسنبينه فيما بعد.

ووجب أن تكون تلك الآلة رخوة متخلخلة ؛ ليسهل نفوذ الأجزاء المختلفة (٤) من ذى الطعم فيها ، وخُلقت لحمية فيكون فيها قوة هاصرة تُعين على انفصال الأجزاء الصغار من ذى الطعم ؛ لينفذ فيها .. وتلك الآلة هى : اللسان . وكذلك جعل داخل الفم ؛ ليكون حيث ينهضم ذو الطعم هضمة ما ، كما سنبينه .

وأما السمع ، فاحتيج إليه ليمكن إشعار الحيوان ، بما يقصد صاحبه من طلب أو تنفير أو غيرهما ، وذلك بالصوت الذى يمكن أن يصل من بُعد . وإنما يتم ذلك ، بوقوع

---

(٣) العبارة مقروءة بصعوبة فى الأصل المخطوط ، ولكى نستوضحها ، رجعنا إلى عبارة مماثلة لابن النفيس ، وردت فى (شرح تشريح القانون ، ص ٣٧١) عند بحثه لتشريح الأنف .

(٤) غير واضحة فى الأصل .

قرع الصوت فى الجلدتين [٩ب]. فوجب أن تكون لطيفة جداً لينة ، ليدرك هذا التأنين اللطيف ؛ فلم يمكن أن تُجعل خارجاً ، فاحتيج ضرورة إلى ثقب ينفذ فيه الهواء الحامل للصوت .

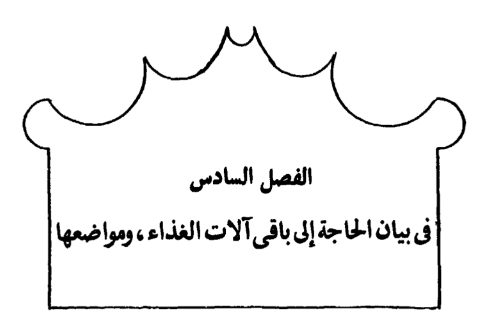
ولم يمكن أن يجعل ذلك فى الوجه ؛ لئلا يضعف بتكثر الثقوب . ولا فى المؤخر لعدم ما يحرسه هناك البتة .. فجعل فى الجانبين حيث تلحقه حراسة من العينين ، ثم احتيط بتصليب الثقب ؛ لئلا تؤذيه المصادمات التى تقع على غفلة من البصر.. فلذلك يسمى هذا العظم : حجرياً (٥) .

ثم جُعل عليه العضو المسمى بجلدة الأذن ؛ ليجمع الصوت ، وليمنع ما يدب إلى الثقب من الحيوانات ؛ ولذلك جعل مجعداً ؛ إذ الأملس يكثر انزلاق الأشياء الناعمة عليه . ثم زيد فى هذا الاحتياط ، فجُعل فى هذا الثقب شعرٌ، يمنع نفوذ الحيوان .. ولذلك أيضاً خلق الشعر فى باطن الأنف .

ثم زيد فى هذا الاحتياط أيضاً ، فجعل فى داخله شىء مرٌّ، ليقتل كل ما يدخل إليه من الحيوانات ، وذلك هو وسخ الأذن .

---

(٥) يقول ابن النفيس :
وهيئة العظم الحجرى ، هيئة مثلث قاعدته الدرز القشرى وزاويته عند العظم الوتدى .. وقد قسمه المشرّحون إلى ثلاثة أقسام : الجزء الذى فيه ثقب الأذن ، وهو شديد الصلابة يشبه الحجر، ولذلك تسمى العظم الحجرى ، وتسمى جملة هذا الجدار بذلك لأن فيه هذا الجزء ، وإنما زيد فى صلابة هذا الجزء ، ليتدارك بها ما يوجبه ثقب السمع من ضعف الجرم (شرح تشريح القانون ص ٧٠) .



الفصل السادس

فى بيان الحاجة إلى باقى آلات الغذاء، ومواضعها

إن مدخل الغذاء يجب أن يكون فى أعلى (١) البدن ؛ ليكون معيناً على وصوله إلى المعدة . وخصوصاً وقد بيّنا أنه لابد [١٠ ب] وأن يكون متصلاً باللسان الذى يجب أن يكون قريبًا من الدماغ ؛ لئلا يصلب العصب الآتى إليه من الدماغ بقوة الذوق فى طول المسافة . ويجب أن يكون متسعاً ؛ ليمكن أن يدخله الغذاء الذى لم يتصغَّر بعد . ولابد وأن يكون مشتملاً على آلات تقطع الغذاء ؛ وهى الثنايا والرباعيات . وآلات تكسره ؛ وهى الأنياب . وآلات تسحقه ؛ وهى الأضراس . وذلك لأن الغذاء لو بقى على مقداره ، لافتقر فى نزوله إلى المعدة ، إلى منفذ واسع جداً ، فكان يضيق المكان على الأعضاء المجاورة له . وأيضاً لو لم يسحق ، صعب على المعدة تصغير أجزائه ، تصغراً يمكن به فصله عن خالصه . وهذا العضو هو الفم ، و يستعين على سحق الغذاء باللسان ، بما يقلب الغذاء و يديره .

ثم لم يمكن أن تجعل المعدة قريبة (٢) منه ، وإلا كانت أعلى من القلب ، فكان القلب فى جهة نفوذ فضلاتها ، فتتضرر الأرواح وجرم القلب برائحتها وقذاراتها . فاحتيج أن يُجعل تحته ثمة حجب بينها و بينه ، كالحجاب الذى ذكرنا أنه يعين على ترويح القلب . وذلك ليمنع ما يتصعد من الأبخرة والأدخنة ـ التى لا يخلو عنها المنطبخ ـ عن النفوذ إلى القلب والروح .

ولما بعدت [١٠ ب] المعدة عن الفم ، احتيج ضرورة إلى مجرى متسع لينفذ فيه الغذاء من الفم إلى المعدة ، وذلك هو: المرىء .. وهذا المجرى لا يمكن أن يكون صلباً ـ كما فى مجرى الهواء إلى القلب ـ لأن هذا يحتاج فيه إلى أن يكون بحيث ينقبض ، و ينبسط ليجذب الغذاء ، و ينقبض ليعصر الغذاء فيمكن نفوذه إلى المعدة ؛ إذ لا يكفى نقل الغذاء فى ذلك .

---

(١) فى الأصل : أعلا .
(٢) غير واضحة فى الأصل .

ولما كان هذا المنفذ، يجب أن يكون ليناً. وجب أن يجعل وراء مجرى النّفس؛ ليكون مجرى النّفس موقياً لأعلاه عن التضرُّر بالمصادمات؛ فوجب - ضرورة - أن يكون الغذاء عند مروره إليه من الفم، يمرُّ بمجرى النّفس. فوجب أن يُجعل له غطاء من جسم ليس بغاية الصلابة، فلا يحسّ سدّة الإنقباض، ولا بغاية اللين فلا يقوى سدده؛ وذلك هو: الغضروف الملبى (٣). وجُعل له أن يتحرك، فيغطى مجرى النفس عند ازدراد اللقمة، ويرتفع عنه فى غير ذلك الوقت؛ لينفتح فيدخله النّفس.

ولما كانت المعدة كالكافلة للأعضاء كلها بالغذاء، وجب أن يكون طلبها له بسهولة قوية جداً، فوجب أن يكون لها إحساسٌ بالخلوعنه.. وذلك إنما يمكن بجرم عصبىٍّ بارد؛ ويجب أن يكون طبخها قوياً، ضرورة أنها كافلة [١١أ] لطبخ غذاء جميع الأعضاء.. وذلك إنما يكون بجرم لحمىٍّ، ليكون حاراً.

فوجب أن تُجعل من طبقتين: عصبيةٌ للحسِّ، ولحميةٌ للطبخ. ويجب أن تكون العصبية داخلة واللحمية خارجة؛ لأنَّ الحاسَّ يجب أن يُلاقى المحسوس، والطابخ يجب أن يُلاقى المطبوخ.. ويجب أن يكون قعرها أكثر لحمية؛ لأنه مستقر الغذاء حين ينطبخ، وأن يكون فمها أكثر عصبية؛ ليكون إدراكه بالخلوعن الغذاء قوياً.

ولما كانت المعدة قوية الشهوة للغذاء، فهى لا محالة تتقاضى (٤) امتصاصه (٥) إذا خلت منه، لكن الإحساس بهذا الامتصاص والتقاضى، ليس مما يحوج إلى تكلُّف تحصيل الغذاء، فاحتيج إلى أن ينصبَّ إليها ما يلغدغها، و يقوى (٦) شهوتها للغذاء بحموضته، وليس فى الأخلاط ما هو كذلك إلاّ السوداء. فاحتيج أن يختزن (٧) بالقرب منها قسطٌ صالحٌ من السوداء؛ ليتصبَّب إليها متى دعت الحاجة، فاحتيج ضرورة إلى عضو خازن لها.. وذلك هو الطحال؛ وجعل إلى اليسار وإلى أسفل؛ ليبعد عن الكبد، فلا تتضرَّر بمزاج السوداء.

---

(٣) هكذا فى الأصل.
(٤) غير واضحة فى الأصل.
(٥) الكلمة فى هامش الصفحة.
(٦) الكلمة فى هامش الصفحة.
(٧) فى الأصل: يحزن.

وإذ الأخلاط كلها تنطبخ فى الكبد، فوجب أن يكون منها إلى الطحال مجرى آخر ينفذ فيه إلى المعدة، ما يصلح للغذائها [١١ب]. ولما كان الطحال فى اليسار، مائلاً إلى أسفل، وصغيراً. وكانت الكبد فى اليمين، مائلة إلى فوق، وكبيرة. كان أعلى الجانب الأيمن أوسع لا محالة، فوجب أن يكون القلب مائلاً إلى اليسار قليلاً.

ولما كان نفوذ الغذاء فى الكبد، يجب أن يكون فى عروق صغار جداً؛ لتكون كليتها بكليتها ملاقية لكليته، ليكون فعلها فيه أشدُّ وأسرع، وجب أن يكون نفوذه إليها فى مجارٍ تناسب تلك العروق فى الضيق، فكان نفوذه إليها فى زمان طويل لا محالة.

وإنما يبتدئ فى النفوذ، إذا تمَّ طبخ المعدة له. وحينئذ، لو بقى فى المعدة مثل ذلك الزمان الذى يتم فيه نفوذه الكبد، لفسد، ولتعطلت المعدة زماناً طويلاً عن الطبخ للغذاء المستأنف.

فاحتيج ضرورة إلى جرم تدفع إليه المعدة الغذاء، ليقيم فيه مقدار ما يتحدر خالصه إلى الكبد، و يكون (٨) للمعدة فى ذلك الوقت أن تطبخ غذاء آخر. ويجب أن يكون ذلك الجرم فى أسفل المعدة؛ ليكون الدفع إليه أسهل.. وذلك هو: الأمعاء.

ويجب ـ ضرورة ـ أن يكون بينها (٩) و بين المعدة مجار؛ لينفذ منها خالص الغذاء إلى الكبد، وذلك هو الماساريقى (١٠). ويجب أن تكون [١٢ب] كثيرة؛ لتتدارك بكثرتها ما فاتها من السعة. فإذا استحال الغذاء فى الكبد، فلابد من مجار لينفذ إلى جميع الأعضاء. وهى الأوردة (١١).

---

(٨) فى الأصل: يلون.

(٩) غير واضحة فى الأصل.

(١٠) المَسْرة فى اللغة، الاستخراج من الضيق. والمَاسِرُ: الساعى (لسان العرب ٣/ ٤٨٣) وعند الأطباء، الماساريقى Venae Mesenterica : مجموعة الأوردة المتصلة بالكبد.. انظر ما يأتى.

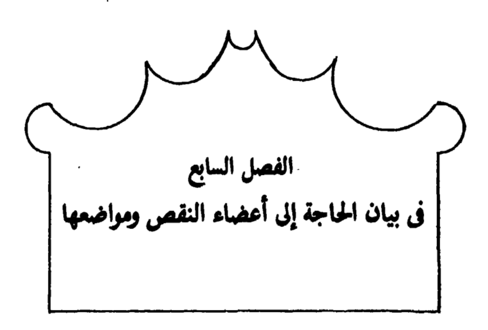
(١١) يبدو أن ابن النفيس لم ينجح فى تقديم التصور الصحيح لعملية امتصاص الجسم للغذاء، و يتضح ذلك من تناوله التفصيلى لهذه النقطة فى شرحه للتشريح حيث يقول: لما كانت الكبد هى العضو الذى من شأنه إحالة الكيلوس (= الغذاء غير المهضوم) كيموساً، لتغذية نفسها وتغذية البدن كله بذلك الكيموس، وإنما يكون ذلك بأن يكون للكيموس طريق ينفذ فيه.. ولما كان تولد الكيموس هو فى

= المعدة وانجذابه هو فى الأمعاء ، وجب أن يكون الطريق الذى ينفذ فيه الكيلوس إلى الكبد ، متوجهًا إلى ناحية المعدة وإلى الأمعاء .. و يكفى أن يكون الآتى للكبد بالكيلوس عرقًا واحداً ، وهذا العرق يسمى الباب ، وفروعه التى تبنت فى جرم الكبد تسمى فروع الباب .. وهذه الفروع تسمى الماساريقا .

وأما الأوردة الموصلة للكيموس من الكبد إلى جميع الأعضاء ، فظاهر أنها يجب أن تكون متصلة أيضا وبالأعضاء جميعاً ، واتصالها بالكبد يكفى أيضاً أن يكون فى موضع واحد ، وذلك هو الوريد المسمى بالأجوف (شرح تشريح القانون ، ص ٣١١ ، ٣١٢) .

ووفقاً لمعلوماتنا اليوم ، فإن عملية امتصاص الغذاء المهضوم (الكيموس) وتوزيعه على خلايا الجسم ، إنما يتم جزء ضئيل منها فى المعدة ، ومعظم الأمتصاص يكون فى المعى الصائم Jeujenum عن طريق عن طريق الخملات Villi التى ينتقل الكيموس من جدارها إلى الأوعية عن طريق الانتشار أو الضغط الأسموزى Osmosis

أما دور الكبد فى عملية الهضم ، فهو يقتصر على صَبِّ العصارة الصفراوية فى الاثنى عشر بواسطة فتحة فى قناة البنكرياس ، وتعمل عصارة الكبد الصفراوية على تنشيط وظيفة العصارة البنكرياسية ، وبذلك تساعد فى عملية الهضم ، وتمهد السبيل أمام امتصاص الغذاء المنهضم فى الأمعاء الدقيقة .



الفصل السابع

فى بيان الحاجة إلى أعضاء النقص ومواضعها

إن الغذاء ـ كما علمت ـ ليس يمكن أن يستحيل كله إلى صورة يمكن أن تصير جزء عضو[1] ، من غير أن يتفضَّل منه فضول . وهذه الفضول لو بقيت عند الأعضاء ، لعفنت ، وأفسدتها بعفونتها ؛ فاحتيج ضرورة إلى أعضاء لخروج الفضلات .

ولا شك أن الكبد إذا أخذت خلاصته من المعدة والأمعاء ، بقى فيها لا محالة غليظة وكثيفة . فوجب أن تكون الأمعاء متصلة بمنفذ متسع ؛ ليخرج منه الثفل بسهولة . ويجب أن يكون فى أسافل البدن ؛ ليكون توجه الفضول إليه أسهل .. وذلك هو: المخرج .

وإذ هذا المخرج فى الأسافل ، فيجب أن تكون للأمعاء تعاريج ؛ ليقيم فيها الغذاء مُدّة ، فى مداها تنفذ صفاوته إلى الكبد ، فلا يفتقر الإنسان إلى تبرُّز كل ساعة . فوجب بالضرورة أن تكون للأمعاء قوة دافعة للثفل ، متى تخلَّص عن الصفاوة .. فوجب أن يكون لها بذلك إدراك [١٣أ] .

ولأن هذا الثفل فاسد الجوهر ، فوجب بالضرورة أن يُصان جرم الأمعاء عن مماسته ، لئلا تؤذيها حدّته وعفونته ، فخلق عليها رطوبات لزجة تكِنُّها . فهى لا محالة تُضعف إدراكها ، فلا يكون محوجاً لها إلى دفعه . فوجب بالضرورة أن يتصَّبب إلى الأمعاء فى وقت الحاجة إلى التبرُّز ، رطوبةٌ حادة ، لتلذعها وتعينها على إخراج الثفل ، ولتخلص[2] الأمعاء أيضاً من الرطوبات اللزجة الزائدة على المجرى الطبيعى .

---

(١) قوله « يصير الغذاء جزء عضو» إشارة إلى ما يعرف بعمليات الأيض Metabolism وهى تعنى : صيرورة الشيء شيئاً غيره ، وتخص بالذات عمليات التغذية ، حيث تتم التغذية فى اتجاهين : الأيض البنائى Anabolisme والأيض الهدمى Catabolisme (معجم المصطلحات ص ٤٧) وإشارة ابن النفيس هنا ، تقع على الأيض البنائى .

(٢) غير واضحة تماماً فى الأصل .

وليس فى البدن رطوبة بهذه الصفة ، إلاَّ الصفراء . فوجب أن يكون لها انصبابٌ إلى الأمعاء ، فوجب أن يكون عندها خزانةٌ للصفراء ؛ لتندفع فيها الصفراء متى دعت الحاجة إليها .. وتلك الخزانة هى المرارة . وجُعلت تحت المعدة ، لتسخِّنها بحرارة الصفراء المخزونة فيها .

والصفراء تأتى المرارة من الكبد ، فوجب أن يُجعل لها مجرى تنفذ فيه الصفراء ، وأن يجعل من المرارة إلى الأمعاء مجرى آخر — وربما كان فى أكثر الناس مجرى آخر إلى (٣) قعر المعدة ؛ لينصبّ إليها من الصفراء ما يسخِّنها و يغسلها من الرطوبات وقذارات الأغذية . وربما كان هذا المجرى فى بعض الناس أوسع [١٣ ب] من المجرى الذى إلى الأمعاء ، فيكون ذلك الشخص يتقيأ الصفراء أكثر ؛ وإن كان بارد المزاج دائماً ، لا يندفع شىء من الصفراء إلى أعالى المعدة ؛ لأنها توجب الغثيان وسقوط شهوة الطعام .. ولذلك يجب أن تبقى فيها لتلافى (٤) هذا .

وأما الكبد ، فلما كان الواصل إليها من الغذاء إنما ينفذ إليها - ومنها - فى مجارٍ ضيقة ، وجب أن يكون معه فضلٌ كثيرٌ من الماء ليترقَّق به ، فإذا تمّ هضمه ، واندفعَ من الكبد ، استغنى عن القدر الزائد عن كفاية البدن من الماء ، فوجب أن يندفع ، لئلا يفسد الدم بمخالطته (٥) ، ويمنع الدم أن يلتصق بالأعضاء !

فاحتيج إلى منفذ آخر، يخرج منه ذلك الماء . و وجب أن يكون فى أسفل البدن أيضاً ؛ ليسهل نفوذه إليه .. وذلك هو: سبيل البول .

و وجب أن يكون للبول عضوٌ يجتمع فيه ، فلا يحتاج الإنسان إلى البول كلما سالت المائية من الكبد .. وذلك (٦) هو: المثانة .

ووجب أن تكون (٧) قريبة من مخرج البول ، فوجب أن تكون فى الأسافل .

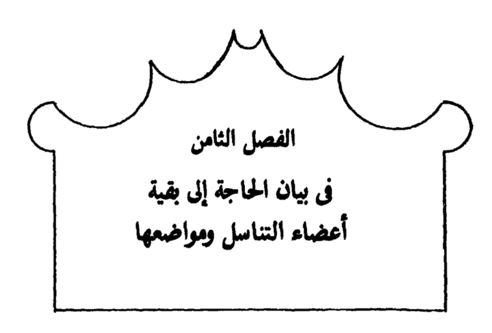
---

(٣) غير واضحة فى الأصل .
(٤) غير واضحة فى الأصل .
(٥) الكلمة فى هامش الصفحة .
(٦) فى هامش الصفحة .
(٧) يقصد : المثانة Bladder

ووجب أن يكون فيها عضوٌ آخر حذّارٌ للمائية من الكبد ؛ ليحصل اندفاعها عن الرافعة (٨) إلى جهته .. وذلك هو: الكلى [١٤أ].

وإنما تحدّر المائية ، لتغتذى من الدسومة والدموية التى تخالطها ، وهذه المائية يتبقى معها فضول الكبد . وأما ما ينفذ مع الدم من المائية لترقيقه وتصعيده فى المسالك الضيقة . فإذا استحال ذلك الدم غذاء بالفعل ، انتقصت تلك المائية ، وخرجت عرقاً .. ويخرج معه ـ لا محالة ـ ما يفضل من غذاء كل عضو.

(٨) هكذا فى الأصل .



الفصل الثامن

فى بيان الحاجة إلى بقية أعضاء التناسل ومواضعها

قد علمت أن الأنثيين يصير الدم فيهما مَنِيّا ؛ ليكون مادة للنسل ، فلابد وأن يكون الدم يتفرق فيهما في عروق ؛ ليكون قبوله للتشاكل والانفعال سهلاً . فيجب أن يكون جوهر(١) الأنثيين لحمياً ، وأن تكون من اللحوم الرخوة ؛ لتكون أرطب ، فتكون استحالة الدم إليه أسهل . إذ إحالة العضو الرطب للدم ، إلى الجوهر الرطب ، أسهل كثيراً من إحالة اليابس .

واللحوم الرطبة تحيل الدم إلى البياض ، فلذلك يجب أن يكون المَنِيُّ أبيض . ويجب أيضاً أن تخالطه أرواحٌ كثيرة ؛ ليبقى مزاجه مُدّة وصوله إلى الرحم . وذلك مما يوجب بياضه أيضاً ؛ لأن الجوهر الروحى ممتلئ (٢) بالهوائية ، والهواء إذا خالط جسماً بيّضه .. تأمل هذا في الماء إذا أزبد[١٤ب] .

ويجب أيضاً أن يكون قوامه أغلظ من الدم ، لزيادة النضج ، ولما يخالطه من الأرواح ، ويمنع سيلانه . ولذلك إذا برد وتحلّلت أرواحه جفّ ؛ بخلاف الدم ، فإنه يجمد إذا برد .

وإذا عرفت هذا ، فأقول إنه يجب أن تكون الأعضاء القريبة من الأنثيين معينة لها ؛ وذلك كالكلية ؛ ولذلك كثر الشحم عليها ، ليعين بترطيبه .

ويجب أن تكون أنثيا الرجال بارزة ؛ لتعين حركتها وقت الجماع على إذابة المَنِيّ ؛ ولذلك يُحتاج إلى الحركة عند الجماع .. وإذ يجب أن تكون أنثيا الرجال بارزة ، فيجب أن تكون في كيس يحفظها و يعلقها بالبدن .

---

(١) كتبت الكلمة في الأصل بقلم مختلف .
(٢) غير واضحة في الأصل .

ويجب أن تكون أنثيا الإناث مدفونة ، لئلا تزداد برداً . ويجب أن يكون للرجال آلةٌ لصبِّ المَنِيِّ فى مستقره .. وذلك هو: القضيب ؛ ويجب أن يكون فى قرب الأنثيين ؛ ليكون وصول المَنِيِّ إليه سهلاً . ويجب أن يكون بينه و بين الأنثيين ، عروقٌ ينفذ فيها المَنِيُّ إليه .

ولما كانت المثانة هناك ، موضوعة أيضاً ، وجب أن تُجعل هذه الآلة مشتركة للبول وإنزال المنى ، لئلا يفتقر إلى تكثير المخارج والآلات .

ولما كان المَنِيُّ، ليس من الفضول التى تكثر جداً ـ وكيف وهو خلاصة الدم ـ وجب أن يكون القدر الذى [١٥ب] ينزل منه عند الجماع يسيراً . ولا شك أن اليسير مما يعسر دفعه ، فاحتيج وقت دفعه أن تكون هذه الآلة منتصبة ؛ ليكون المجرى مستقيماً منفتحاً .. ولم يُحتج إلى ذلك فى البول ، لكثرته وسيلانه .

وإذ يتوقف خروج المَنِيِّ على انتصاب هذه الآلة ، وجب أن يكون لها عضلٌ يحدُّها من كل جانب ، حتى تستقيم ، وأن يتصبَّب إليها حينئذ أرواحٌ كثيرة ، ورياحٌ نافخة حتى تتمدَّد .. وكذلك الذكر عند الانتصاب .

و يلزم ذلك ـ لا محالة ـ أن يتصبَّب إليه دمٌ كثيرٌ تبعاً لحركة الروح ؛ ولذلك يثقل حينئذ ويحمرُّ . وفى هذا الروح والدم فائدة أخرى ، وهو أنه يبقى أسخن ، فتتحفظ فيه سخونة المَنِيِّ .

ويجب أن يكون هذا الفعل لذيذاً جداً . وإلاَّ لم يُقدم عليه الحيوان ؛ فيجب أن يكون مجرى المَنِيِّ حسَّاساً ، ويجب أن يكون شبيهاً بلحم الأنثيين ، لئلا يتعسر المنى فى نفوذه فيه ، فيكون ـ لا محالة ـ لحمياً .

وسبب تلك اللذة ، أن المنى بحرارته ، يدفىء ذلك اللحم . فيكون كالماء المعتدل الحرارة إذا صُبَّ على بدن قد برد . وأيضاً ، لحدَّته ولين المجرى ، يحدث فيه تفرق اتصال يسير ، وذلك موجب لألم ما لا محالة ، إلاَّ أنه ألمٌ لذيذ كألم الحكة [١٥ب] .

ثم إن المَنِيَّ بلزوجته ، يلزق ذلك التفرق و يردُّه إلى الاتصال الطبيعى ؛ فتحصل لذة عُقيب ألم .. وذلك هو: اللذة القوية .

وإذ مجرى المَنِيِّ يجب أن يكون ليناً ، فيجب أن يُجعل فى أول هذا المجرى

رطوبة ، تسيل عند إنزال الـمَنيّ ؛ لتلين المجرى ؛ لئلا يكون جافاً بطول العهد بالجماع .. وذلك هو: المذى (٣) .

ولما كان مما يجب أن ينزل قبل الجماع ، وجب أن ينزل بأدنى شهوة . فيجب أن يكون هناك جسمٌ غـدديٌّ مولد لهذه الرطوبة ، ويجب أن يكون مجراه مغايراً لمجرى الـمَنِيّ ـ لئلا يفسد المَنيُّ بمخالطته ـ وإذ مجرى المَنيّ يجب أن يكون ليناً ، ومجرى البول يجب أن يكون صلباً ـ لئلا يتضرَّر بحدّة البول الذى يجب أن يكون مجراه ، مغايراً لمجرى المَنيّ أيضاً ـ فلذلك يجب أن تكون مجارى الذكر ثلاثة .

ويجب أيضاً ، أن يكون للبول رطوبةٌ أخرى تسيل معه ، فتكسر حدّته .. وتلك الرطوبة هى الوذى (٤) . ولم تحتج إلى مجرى ما ، مغايراً لمجرى البول ـ إذ البول مما لا يُخاف من فساده ـ فاحتيج أيضاً إلى جسم غدديٌّ ، يولِّد هذه الرطوبة ، وذلك عند عنق المثانة ، ليكون البول مصاحباً لتلك الرطوبة من أول خروجه ، فلا يلدغ المجرى ؛ ولذلك يحدث حرق البول [١٦أ] ، من نقصان هذه الرطوبة أو عدمها .

هذا ، ويجب أن تكون للنساء آلةٌ يتولَّد منها الجنين ، وإنما يمكن ذلك بأن تكون هذه الآلة مجوفة عظيمة ؛ ليمكن أن تسع الجنين . ولا يمكن أن تكون هذه الآلة إلاّ متوسطة الصلابة ، فتكون عصبية ؛ إذ لو كانت لحمية لضعفت عن احتمال (٥) الجنين ، ولو كانت عظمية ، لم يمكن أن تشتمل عليه عند صغره ، وأن تمتد وتنبسط عند كبره .. وتلك الآلة هى : الرحم .

ولابد وأن تكون فى داخل البدن ؛ لتكون أسخن وأدفأ ، فاحتيج ضرورة إلى منفذ . ولم يمكن أن يكون ذلك المنفذ صلبًا ، وإلاّ لم يسهل انفتاحه عند إرادة صبّ الـمَنيّ ، وانضمامه فى غير ذلك الوقت ؛ لئلا يتضرَّر الرحم بوصول الهواء إليه ، ولئلا يسقط المَنيُّ من الرحم ، فاحتيج ضرورة أن يكون لحمياً .. فوجب أن يكون قضيب

---

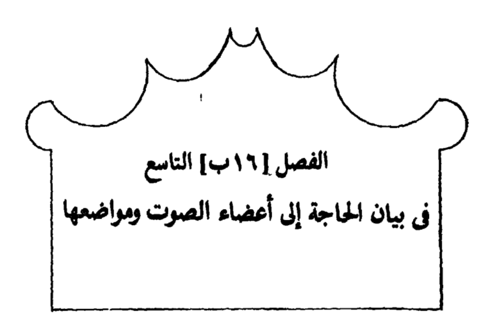
(٣) المذى Urethrai Secretion of Cowrer's : البلل اللزج الذى يخرج من الذكر عند ملاعبة النساء (معجم المصطلحات ص٦٢٩ ــ لسان العرب ٣/٤٥٨) .

(٤) الوذى أو الودى Prostatic Secretion : ما يخرج عقب البول من إفراز الموثة (البروستاتا) إذا كان الرجل قد جامع قبل ذلك أو نظر بشهوة (المعجم الطبى ص٥١٨ ــ معجم المصطلحات ص٧١٤ ــ لسان العرب ٣/٩٠٣) .

(٥) غير واضحة فى الأصل .

الرجل على مقدار يمكن إذا حلّ فيه ، أن يصبّ المَنيّ فى الرحم ؛ لئلا ينطبق المجرى على المَنيّ ، فلا ينفذ إلى الرحم .

ويجب أن يكون لهذا الرحم اشتياقٌ طبيعيٌ إلى المَنيّ ؛ ليجذبه إليه ، فيعاضد بجذبه له ، دفع أنثيى الرجل . ومنزلة هذا الرحم من الرجال منزلة كيس الأنثيين ، ومنزلة عنقه ، منزلة ذكر مقلوب .



الفصل [١٦ب] التاسع

فى بيان الحاجة إلى أعضاء الصوت ومواضعها

قد علمت أن الإنسان (١) إنما يبقى نوعه بالتناسل ، وأن التناسل إنما يكون بجماع ، وأن الجماع الذى به النسل إنما يتم بين ذكر وأنثى .. فنقول : ليس يمكن لحيوان ، أن يكون ملازماً لأنثاه دائماً ، فقد يفرّق بينهما ضرورة ضيق المكان ، وطلبُ الرزق ، وغير ذلك . فلابد وأن يكون لكل واحد منهما آلة ، بها يمكن استدعاء صاحبه إذا أراد قضاء وطره منه ، وأن ينفره عنه إذا أراد التخلى وحده ، والانفراد بنفسه . وليس يمكن أن تكون هذه الآلة عضواً من الأعضاء ، فقد يكون التباعد بينهما أكثر من ذلك .

ثم كان الحيوان لا كلفة عليه فى التصويت ؛ لأنه يحدث بنوع من التنفس الذى هو ضرورى . وأيضاً ، فإنه يشتمل على خاصية ليست لغيره ، وهى أنه إذا أدى المقصود منه ، انعدم بذاته ، فكأنه هو أحسن (٢) الآلات لذلك .

لكن غير الإنسان التجأ فى حصول أغراضه ؛ لتغير أنغامه ، فيستعمل للغضب نغماً خاصاً ، وللطلب نغماً خاصاً ، وكذلك التحذُّر ، وغير ذلك . وأما الإنسان ، فلما كان غذاؤه وملبسه صناعياً ، اضطر ـ لا محالة ـ إلى مشاركة (٣) جمع من نوعه ، فإنه يعسر عليه أن يتولى وحده أمر غذائه وملبسه [١٧أ] ، بل يحتاج إلى واحد يطبخ ، وآخر يزرع ، وآخر يخيط الثوب ، وغير ذلك . فلم ينضبط ما فى نفسه بغير الأنغام ، بل اضطر إلى تركيب ألفاظ من حركات وحروف ، وجعل كل لفظة لمعنى .. وذلك هو : الكلام .

وقد جُعلت قصبة الرئة ، بمنزلة قصبة البوق . وجُعل على رأسها جسمٌ غضروفىٌّ معتدل الصلابة ـ أوسع من القصبة ـ بمنزلة المكان المتسع من البوق ، الذى عند

---

(١) الكلمة فى هامش الصفحة .
(٢) غير واضحة فى الأصل .
(٣) الكلمة فى هامش الصفحة .

رأسه .. وهذا الجسم هو: الحنجرة . وجُعل الحدُّ المشترك بينها و بين طوق القصبة ضيقاً (٤) ؛ لينحصر الهواء فى القصبة ؛ ليخرج إلى المكان المتسع بقوة ، وبهذا يحصل الصوت .

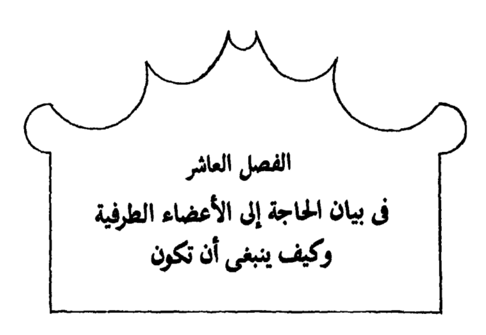
ثم ضُيق أعلى (٥) الحنجرة ، توسعة لمكان المرىء ، ولينحصر الصوت مرة أخرى قبل خروجه إلى فضاء الفم . ثم جُعل من أعلى الحنك ، منفذ إلى الأنف ؛ ليعين على تقطيع الحروف ، فلا يزدحم الهواء كله فى موضع واحد ؛ وهذا الثقب يطبق الثقب المثقوب خلف المزمار الذى لا يسد ، ولئلا (٦) يحتاج فى الصوت إلى تطويل قصبة الرئة ، وجب أن تُخلق الرقبة لذلك ، وليكون للرأس تمكُّن من حركات شتى إلى جهات مختلفة .

ثم لما كان بعض الحروف ، يُحتاج فى النطق بها إلى تضييق [١٧ب] مخرجها ، و بعضها إلى توسيعه ، خُلقت الشفة لتضيّق تارة ، وتوسّع أخرى .

وكذلك ، لما كان بعض الحروف يحتاج فيها إلى تحريك عضو فى داخل الفم ، جُعل اللسان كالمنفصل عن الفم ؛ ليمكن تحريكه . وجُعل له عرض صالحٌ ؛ ليمكن أن يتقعّر تارة ، و يتحدّب أخرى ، و ينبسط تارة ، و ينقبض أخرى ؛ بحسب ما يُحتاج إليه من الحروف .

---

(٤) فى الأصل : ظيقا !
(٥) فى الأصل : أعلا
(٦) فى الأصل : ولن



الفصل العاشر

فى بيان الحاجة إلى الأعضاء الطرفية وكيف ينبغى أن تكون

لما كان غذاء الإنسان وملبسه صناعياً ، وجب أن يكون تمكنه من عملها سهلاً . وإنما يمكن ذلك ، بأن يكون له يدان . ولابد أن تكون يداه قريبتين من أعلى بدنه [1] ؛ ليكون وصول قوة الحسّ والحركة إليهما من الدماغ أسهل ، وليكون التمكُّن من العمل بهما أكثر ، ولتكون جهات الحركات لهما أكثر .. إذ لو كانتا فى أسفل البدن ، لم يكن استعمالهما كما يجب ، عند كون الإنسان جالساً ، ولم يكن لهما حينئذ حركة إلى أسفل .

ولا يمكن أن تكون متصلة بالصدر ، وإلا فُقِدَ إقبال كل واحدة منهما على الأخرى ، ولم يحسُن تأبطُ ما يتأبطه الإنسان . ولم يمكن أيضاً ، أن يتصلا بالرأس ، وإلا كان ما بينهما ضيقاً ، وكانت حركاتها القوية مؤذية للدماغ [١٨ ب] ، ولم يكن يمكن ــ حينئذ ــ أن تكونا عظميين وإلا أثقلتا الدماغ ، ولم تكن مشاهدة عملهما حينئذ سهلة .

ولم يمكن أن يكونا من خَلف وقُدام ، وإلا كان أكثر عمل الخلفانية غير مشاهد ، ولم يكن التقاؤهما فى جهة الحواس .. فلم يكن لهما موضع أحسن [2] .

والأكثر تمكُّناً من الحركات إلى الجهات المختلفة ، من أعلى الصدر ، من الجانبين . ولو وُصلا بذلك الموضع من غير عظم الكتف ، ضاق ما بينهما ، ولم تكن إحداهما مقبلة على الأخرى كما ينبغى ، ولم يحسُن التأبطُ ؛ وكان اتصالهما يكون باللحم ، فلم يكن قوياً .

---

(١) غير واضحة فى الأصل .

(٢) يقصد : موضع أحسن مما فيه اليدان بالفعل فى الإنسان .

فاحتيج إلى عظم الكتف ، ليكون مفصلها بارزاً من الصدر قليلاً ، فيكون التمكُّن من جهات الحركات أكثر ، وحصل بهذا سترٌ لذلك الموضع ، فقام مقام فقرة ، إذ لا فقرات هناك ولا ساتر . ورُبط بالترقوتين ـ وهما عظمان متصلان بأعلى القَسِّ ـ ليستحكم بذلك ، وليكون لما ينزل من الدماغ أو يصعد إليه ، وقاية ما .. ثم جُعل على ظهره عظم كالمثلَّث ؛ ليقيه من ضرر المُصادمات ، حيث الحواس تشعر بذلك . وقد جُعل بروز عظم الكتف معتدلاً ، لا كبيراً جداً فتضعف اليد ، ولا قليلاً جداً فيضيق ما بين اليدين .

ثم جُعلت اليد من عضد [١٨ب] وساعد ؛ لتكون حركاتها متقنة أكثر مما لو كانت من عظم واحد . وجُعل الكتف من عظام كثيرة ؛ ليكون له أن يتقعَّر ليحفظ الأشياء السيَّالة ، وليتشكَّل بشكل ما يقبضه ؛ ليكون إمساكه له أقوى .

وكثرت عدد الأصابع (٣) ؛ لتحتوى على الممسوك من جهات كثيرة . وجُعلت كل واحدة منها من ثلاث (٤) سلاميات ؛ ليكون لها أن تحتوى على الممسوك ، ولتكثر أنواع حركاتها . ولم يمكن الزيادة على ثلاث ؛ لئلا تكون حركاتها واهية .

وجُعلت كل أنملة منها أعظم مما فوقها ؛ ليكون الحامل أقوى من المحمول . وجُعلت عظامها صلبة مصمتة ؛ لتكون أقوى . وجُعل باطنها أكثر لحمية ؛ ليتطامن تحت الممسوك الصَّلِب ؛ ونقص ذلك من ظاهرها ؛ لئلا يثقل .

وجعلت أطراف الأنامل لحمية ؛ ليمكن مسك الأشياء الصلبة ، والصغيرة ، فلا يعرض كما يعرض لو طالت الأظفار ، حتى منعت اتصال أنملة إحدى الإصبعين بالأخرى ، عندما تقبضان على شيء .

وجُعلت الأظفار من خلفها ؛ لتدعمها عند القبض على الأشياء الصلبة ، فتمنع بروز لحم الأنملة إلى خارج .. وجُعلت الأظفار من عظام لينة لئلا تتكسَّر عند رَضِّ الأشياء الصلبة لها ؛ وجُعلت دائمة النمو [١٩أ] ؛ لأنها بمعرض الانحوال والانحراد .

وجُعلت الأصابع الأربع متقاربة ؛ لِتُعَضِّد كل واحدة منها بالأخرى . وجُعل ما بين الإبهام والسبابة مبتعداً ؛ لتكون الإبهام عند مسك الأشياء المستديرة ، مقابلة للأصابع الأخرى من الجهة الأخرى ، فيكون الإمساك أقوى .

---

(٣) الكلمة فى هامش الصفحة .

(٤) فى الأصل : ثلث .

ولم تجعل الأصابع كلها على طول واحد ؛ لتكون أطرافها عند القبض متساوية ، ويكون الحاصل من المجموع كالكرة .. إذ قد بيَّنا أن هذا الشكل أوسع الأشكال (٥).

وأما الرِّجلان ، فالحاجة إليهما ظاهرة .. وهي التمكُّن من النقلة .. ولما كانتا حاملتين (٦) لجملة البدن ، وجب أن تكونا في أسفله ، وأن تكونا قويتين لتفيا بحمله .. فوجب أن تكونا أعظم من اليدين .

ووجب أن تنقسما إلى فخذ وساق وقدم ؛ لتكون الحركات المتفنِّنة (٧) ممكنة لهما . ووجب أن تكون الفخذ أعظم ؛ لأنها حاملة لما فوقها ، ناقلة لما تحتها (٨) . وأما الساق ، وإن كانت حاملة للفخذ عند الثبات ، إلاَّ أنها احتيج أن تكون صغرى ، لتكون أخف ، فتكون حركاتها أمكن (٩) .

واحتيج إلى القدم ؛ ليكون إلى جهة ميل ثقل البدن ، وجُعل من عظام كثيرة ؛ ليكون له أن يتشكَّل بشكل الموطوء عليه ، ويمسكه . ولذلك جُعل له أصابع [١٩ب](١٠).

وجعلت أصابعه في صَفٍّ واحد ؛ لتكون أحسن في الثبات ؛ إذ المقصود من القدم من الثبات ، أكثر من القبض والإمساك . وجُعلت الإبهام كبرى (١١) ؛ لأنها العُمدة في الثبات ؛ ولذلك جُعلت عظامها أقل .

وجُعل للقدم التقعير المسمى بالإخمص ؛ ليكون المشي على ماله حروف - كالدرج - متأنياً من غير إيلام .. ولما كان القدم إلى قدام البدن ، وجب أن يُدعم من خلف بما له اتجاه ما إلى خلف .. فخلق له العقب ، وجعل مؤخره مستديراً ؛ ليكون انفعاله عن المصادمات أقل .

---

(٥) راجع كلام ابن النفيس عن تجويف الصدر، فيما سبق .
(٦) في الأصل: كانا حاملين.
(٧) في الأصل: حامل لما فوقه، ناقل لما تحته .
(٩) العبارة في الأصل: « وإن كانت حاملا للفخذ عند الثبات ، إلا أنه احتيج أن يكون أصغر؛ ليكون أخف ، فتكون حركاته أمكن » و يلاحظ أنه اعتبر كلمة الساق مذكرة، والصحيح أنها مؤنثة ، قال تعالى: « التفَّت الساق بالساق »
(١٠) القدم مؤنثة ، وقد استعملها المؤلف في هذه العبارة على أنها مذكرة، فتنبَّهْ .
(١١) في الاصل : اكبر



الفصل الحادى عشر

فى العظام ومفاصلها

وبيان وجه الحاجة إليها وإلى الغضاريف

.. ولو كان بدن الإنسان خالياً من العظام ، لكان ضعيف الحركات ، واهى التركيب [١] ـ كالحال فى الدود ـ فوجب أن يشتمل على أجزاء صلبة ؛ لتكون كالأساس والدعامة للأعضاء ، وليكون للبدن استقامات [٢] .. ولمنافع أخر، وذلك أن فيها ما هو كالجنة [٣] لأعضاء لينة [٤] ، كالأضلاع [٥] للقلب والكبد ؛ ولذلك جُعلت مشتملة عليه من كل الجهات ولم تحتج المعدة إلى ذلك لحراسة الحواس لها من قُدام ، ولئلا [٦] يمنع ذلك انثناء البدن ، ولئلا تتألم إذا امتلأت [٢٠أ] غذاء أو نفخاً ، ولا كذلك القلب .

وأيضاً ، منها ما هو كالسلاح لدفع المصادمات ، كالعظام التى تسمى السَّناسِن [٧] وهى كالشوك على ظهر الفقار .. ولمنافع أخرى ذكرناها فى التشريح [٨] .

---

(١) الكلمة فى هامش الصفحة .

(٢) غير واضحة فى الأصل .

(٣) غير واضحة فى الأصل .. وقد أثبتناها على هذا النحو استناداً إلى عبارة مماثلة لابن النفيس فى شرح التشريح .

(٤) الكلمة غير مقروءة تماماً فى الأصل .

(٥) فى الأصل : كالاضطلاع .

(٦) فى الأصل : ليلا

(٧) السناسن : عظام موضوعة على ظهور الفقرات ؛ لتمنع وصول المؤذى ، وهى بمنزلة الزوائد التى على حجارة جدران القلاع وأسوار المدن ، إذ الغرض منها منع وصول صدمة حجارة المنجنيق ونحوها ، وكذلك هذه العظام للفقرات (شرح التشريح ص ٤١)

(٨) يقول ابن النفيس فى منافع العظام :
هذه هى الأقسام المذكورة فى الكتاب (= القانون فى الطب) وللعظام أقسام أُخَر بحسب المنفعه : فمنها ما هو بمنزلة الخشبة التى يدفع بها ما يميل من البناء ليمنعه من إتمام الميل ، وذلك كالعظم الوتدى لعظام الفك الأعلى ، فإنه يمنعها من الميل إلى الداخل ، وكذلك عَظم العقب .. ومنها ما هو كالممر لما ينفذ ـ كعظام الأنف ـ ومنها ما هو لتحسين الخلقة (شرح التشريح ص٤٢) .

ولم يمكـن أن يُجعل البدن من عظم واحد ، وإلاَّ لم يكن له حركة . ولا من عظام متباعدة ، وإلاَّ كان تركيبه واهياً ؛ فوجب أن يكون بين العظام مفاصل .

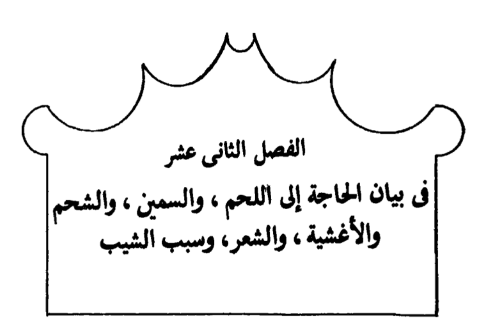
وكل مفـصل ، فإما ألا يكون لأحد عظميه أن يتحرك وحده ، وهو الموثق . أو يكون لـه أن يتـحرك وحده ؛ فإما سهلاً ، وهو المفصل السَّلِس ـ كمفصل الرسغ من الساعد ـ أو عسراً ، وهو العسر غير الموثق ، كمفاصل ما بين عظام مبسط الكف .

والمفـصل الموثـق ، إما ألا يكـون لأحـد العظمين مداخلة من الآخر البتة ، وهو الملـزق ـ إما طولاً كـعظمى الساعد ، أو عرضاً كمفصل عظمى الفك الأسفل ـ وإن كـان لأحد العظمين مداخلة فى الآخر ، فإما أن يكون ذلك من كلا العظمين ، وذلك هـو الشأن والدرز ـ كمفاصل عظام الرأس ـ أو لأحد العظمين فقط وذلك هو المركوز ، كالأسنان فى منابتها (٩) .

وأمـا الغضاريف ، فنافعها كثيرة ، منها : لتكون على أطراف العظام ، فلا تتضرَّر بهـا الأعـضـاء [٢٠ب] اللـينة المجاورة لها ؛ كالغضاريف التى على أطراف أضلاع الخلـف . ومنهـا : لـيخـشـن بهـا اتصال العظام ، لئلا تتحك وتنجرد بحركة المفصل . ومنهـا : لتعلق بها أوتار عضو لا يمكن أن يشتمل على عظم ـ كالأجفان ـ فإنه لو اشتمل على عـظـم كـبير لـثقل ، أو دقيق جداً لانكسر . ومنها : أن تكون حيث يُحتاج إلى لين عضو ، لا بغاية الصلابة ولا بغاية اللين ، كغضاريف الحنجرة .

---

(٩) تـكـاد عـبـارات ابن النفيس هنا ، تتطابق مع عباراته الواردة فى (شرح التشريح ص٤٣ ومابعدها) حيـث يتـنـاول تقسيم العظام وما تحتوى عليه من التجاويف ، لكن شرح التشريح يتميز بوقفات ابن النفيس النقدية لآراء جالينوس وابن سينا فى تقسيم العظام .



الفصل الثانى عشر

فى بيان الحاجة إلى اللحم ، والسمين ، والشحم والأغشية ، والشعر، وسبب الشيب

إن هـذه الأعـضاء التى تقدّم ذكرها ، ليس يمكن أن يكون وضعها وضعاً لا خلل فيه البتة ، وإلاَّ تعسرت حركة كل واحد منها وحده ، فلم يمكن أن تتحرك الأعضاء عند تحرُّك العضل والوتر ، ولا كان يمكن أن ينبسط الشر يان و ينقبض . وإذاً ، فلابد وأن يكون بينها خلل ، فاحتيج ضرورة إلى جسم لين ، يملأ ذلك الخلل ليتدعم به ، وليبقى وضعها محفوظاً ، وليدفئ الأعضاء ـ فيدفع (١) عنها ضرر الحرق وضرر البرد أيضاً ـ وليكون وطاء وغطاء للأعضاء ، وليحسِّن شكلها .

وما كان من ذلك ، متولداً من دسومة الدم ومائيته ، سمى سميناً . . وهذا يكون شديد البياض ؛ لأن عاقده من البرد ، ومن [٢١أ] شأن البرد أن يبيِّض الرطب .

وما كان تولُّده عن متين الدم ، وعاقده الحر ، يُخصُّ باسم اللحم . ثم ما كان من ذلك يميل إلى بياض ما ، سمى لحماً غددياً .

وأما الشحم ، فيتولد من مائية الدم ودسمه أيضاً ، وانعقاده من برد أقوى من برد السمين . ولوجوده منافع : أحدها : ليقبل الحرارة بدهنيته ، ثم يفيدها عضواً قر يباً ــ كالذى على المعدة والأمعاء . وثانيها : أن يمدّ عضواً آخر بدهنيته ، فلا يجف لقوة حرارته ، وذلك كالشحم الذى على القلب . وثالثها : ليكن بعض الأعضاء من ضرر ما ينفذ فيها ، وذلك كالشحم الذى يوجد فى باطن الأمعاء ليدفع عنها ضرر حدّة الثفل وعفنه .

وأما الأغشية ، فهى أجسام منتسجة من ليف عصبىٍّ ورباطىٍّ ، يغشى أعضاء أخرى ، وذلك لمنافع : أحدها : لتحفظ شكل بعض تلك الأعضاء . وثانيها : ليكون للأحشاء حسٌّ فى ظاهرها . وثالثها : ليتعلق بها ما يجاورها من الأعضاء بواسطة هذا الليف .

(١) فى الأصل : فيدع

وأما الشعر، فتكونه من بخار دخانى تحلّلت مائيته من خلط البخار، فانعقدت الدخانية الصرفة . وإنما يتمُّ تكونه إذا كان للدم متانة ؛ ليكون المتبخر عنه قليل المائية ، وتكون المسام معتدلة [٢٢ب] ، فلا تكون متسعة جداً فيتحلّل منها الدخان ولا يجتمع ، ولا ضيقة جدًّا فلا يكون (٢) لما يخرج منها من الدخان ، حجم يوجب تماسك الأجزاء ليكون شعراً .. فإذا كانت المسام متوسطة ، لم يتحلّل منها ـ لغلظه ـ واحتبس فيها ، فينبنى على هيئتها . فإذا ورد دخان آخر من ورائه ، اتصل به ودفعه ، فخرج شعراً .

وتشترك جميع أنواع الشعر فى منفعة : وهى تنقية العضو المتولّد فيه . وتختلف بعد ذلك ، فبعضها يقتصر على هذه المنفعة ، كالشعر الذى على الساق والساعد والصدر والمعدة ، والذى على الإبطين والعانة ؛ و بعضها يجمع إلى هذه المنفعة ، الزينة فقط ، وذلك كشعر(٣) اللحية ؛ و بعضها يجمع إليها ، مع منفعة الزينة ، الوقاية ، وذلك كشعر الرأس والحاجبين والجفنين ؛ و بعضها يجمع إليها الوقاية فقط ، وذلك كشعر الأنف والأذن .

وتفلفل شعور السودان ، لقوة حرارة بلادهم ، فيحترق الشعر و يتجعد بإفراط . وسبب طول شعر رءوس أهل الهند ، رطوبةٌ تعين على تبخر الأجسام الأرضية . والبلاد الحارة يكون شعر رأس أهلها أسود ، والباردة يكون شعرهم أصهب وأشقر[٢٣أ]، كالصقالبة (٤) . وكثرة الشعر على أبدان الأكراد ليبوسة مزاجهم ، بسبب أنهم جبليُّون . والسبب فى نعومة أبدان الترك ، قلّة الشعر عليها لضيق (٥) مسامهم لقوة البرد عندهم . والسبب فى نعومة أبدان السودان ، قلة الشعر عليها لاتساع مسامهم لفرط الحرارة عندهم ، وللحرارة الملينة للجلد ، فتتسلل الرطوبة إليه .

والصّلَع يكون فى الأكثر فى مقدم الرأس ، لتخلخله ، فلا يتكون هناك شعر إلا لكثرة المادة جداً ، وفى الأكثر، فأول ما ينبت من اللحية ، العذاران (٦) ، لحرارة العضلتين اللتين هناك ورطوبتها .

---

(٢) مطموسة فى الأصل .

(٣) فى الأصل : هو كشعر .

(٤) الصقالبة ، جماعة حمر الألوان صهب الشعور، يتاخمون الخزر و بعض جبال الروم (لسان العرب ٢ / ٤٥٩) .

(٥) مطموسة تماماً فى الأصل .

(٦) العذار، الشعر النابت على الخد . يقال ما أحسن عذاره، أى خط لحيته (لسان العرب ٢ / ٧١٨)

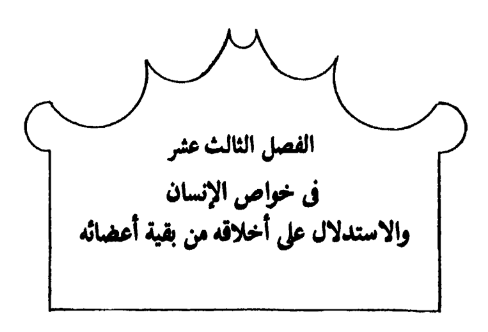
وشعر الرأس والجفنين ، يوجد من أول الولادة ؛ لشدة العناية به ، لما بيناه من المنفعة . وشعر العانة والإبط ينبت عند البلوغ ، لقوة حرارة الأُنثيين والقلب حينئذ . وشعر اللحية إلى بعد البلوغ بعامين أو ثلاثة (٧) ، لتقوىّ الحرارة أكثر.

وسبب الشيب هو التكرُّج (٨) الذى يلزم الغذاء الصائر إلى الشعر، إذا قصَّرت الحرارة عن تحليل الرطوبات .

---

(٧) فى الأصل : بعامين ثلثه .

(٨) الكرج ، الفساد . يقال للخبز إذا فسد وعلاه الخضرة : كرج الخبز وتكرج .. وهى كلمة فارسية معربة (لسان العرب ٣/ ٢٣٩) .



الفصل الثالث عشر

فى خواص الإنسان
والاستدلال على أخلاقه من بقية أعضائه

إذا قيس رأس الإنسان إلى بدنه ، كانت نسبته (إليه أعظم من نسبة رءوس باقي الحيوانات إلى أبدانها) (١) ، و يشبه [٢٣ب] أن يكون ذلك ، لحاجته إلى روح أكثر، بسبب القوة المفكرة والذاكرة اللتين ليستا لغيره .

وإذا (٢) كان رأس الإنسان كثير اللحم ، كان صاحبه (٣) بليداً كثير الهذيان ، لأن دماغه يسخن بكثرة اللحم وقلة التنفس ، لانسداد المسام به ، وتغلُظ أرواحه لكثرة الأبخرة ، بسبب امتناعها من التحلل لانسداد المسام .

وإذا كان الرأس كبيراً ؛ فإن كان معه عظم من الصدر، ولينٌ من الجثة ، وحسن من الشكل ؛ فصاحبه يكون كثير السرور وحسن الأخلاق ؛ لأن ذلك تابع لكثرة الدم الصالح لتكوُّن الأعضاء ، ولقوة القوة على التخليق ، ولأن الأرواح تكون لها مجال منفسحة ، ولكنه فى الغالب يكون بليداً ؛ لأن دم مثله ، تكون الأرضية غالبة عليه ، فلذلك استعدّ لتكون الأعضاء أكثر.

وأما إذا كان عظم الرأس مع صغر باقي الجثة ، فصاحبه يكون بليداً (٤) مسقاماً ضعيف الحركات .. لأن ذلك إنما يكون لفرط رطوبته ، مع قلة حرارة القلب ـ وإلا لعظم الصدر ـ فإن كان شكل الرأس مع هذا ردیئاً (٥) ، فهو أردأ . وخصوصاً إذا كان عظم الرأس مفرطاً .

---

(١) ما بين القوسين مكتوب فى هامش الصفحة بقلم مختلف وحبر خفيف باهت
(٢) فى الأصل : إذا
(٣) الكلمة فى الهامش
(٤) غير واضحة فى الأصل
(٥) فى الأصل : رو يا

وأما صغر الرأس فهو دائماً رديء ، لصغر[٢٤أ] مجال الأرواح ؛ فلذلك يكون صاحبه لجوجاً (٦) متغير الآراء ؛ لأن أرواح دماغه ، لضيق مكانها ، تكون قليلة . فإن كان مع هذا ، كِبَرٌ من الصدر ؛ فهو أردأ .

وشعر الرأس من خواص الإنسان . وإفراط طوله ، إن كان مع كثرة تعفُّن البدن وأذيّة لونه ، دَلّ على كثرة الدخانية والسوداء و يبوسة المزاج ، وصاحبه يكون ذا كبر وحقد . وإن كان مع نعومة البدن ـ وخصوصاً مع بياض اللون وحمرته ـ دَلّ على أن البخار الدخانى يتفضل كثيراً ، فينقى الدماغ ؛ فيكون صاحبه كثير الضحك والخيلاء ، معجباً بنفسه .

وكِبرُ اللحية جداً ، دليل قلة العقل . وأصحاب الصَّلَع لا تعتريهم الدوالى ؛ لأن رطوباتهم تكون قليلة ، فلذلك تكون أصحّ ، وأقل مرضاً ، وأسرع حركة ؛ ويحدث فى الإنسان من قُدام وجهه .

وأعلى وجهه جبينه ، وهو ما بين رأسه وعينيه . وعظم الجبين جداً ، يدلُّ على لطف الحركة . وعدم النتوء من قدام بالكلية ، يلزمه قصور التخيل . والحاجبان إذا اتصلا على استقامة خطية ، دَلاَّ على تخنيث (٧) واسترخاء ، ولذلك لم ترتفع فيبسط كل واحد منها ، فيحصل التقويس . وإن اتصلا متحدرين إلى طرف الأنف ، وكانا دقيقين ، دَلاَّ على لطف [٢٤ب] وذكاء ، لقلّة الدخانية وحُسن (٨) التصرف فيهما .

وإن كانا غليظين جداً ، دَلا على غِلٍّ (٩) وحقد و بلادة ، لدلالة ذلك على كثرة الدخانية وغلظها ، حتى لا تتحرك إلى فوق .. والشيخ يطول حاجباه ، لا تساع الدرز الذى تحتها ، فيجد البخار منفذاً واسعاً .

والحاجبان للإنسان وحده ، وكذلك الشاربان . وللتيس (١٠) شبه اللحية . وليس لشىء من الحيوان هدب يعتدُّ بها فى الجفن الأسفل ، إلاَّ الإنسان .

وتحت الحاجبين عينان ، وهما أدلُّ الأعضاء على هيئة الشكل ، كما أنهما أدلُّ على

---

(٦) اللجج : الخلط وإظهار غير ما فى النفس (لسان العرب ٣ / ٣٤٧) .
(٧) غير واضحة فى الأصل .
(٨) فى الأصل : حسن .
(٩) مطموسة فى الأصل .
(١٠) التيس ؛ الذكر من الماعز والوعول .

انفعالات النفس من الغضب والفرح وغيرهما .. فإنهما فى الغضب يبرزان جداً ، لحركة الدم والروح إلى خارج . وكذلك فى الفرح ، إلاَّ أن ذلك فى الفرح يكون أقل . وفى الغم تكونان غائرتين .. وقد قال بعض الفضلاء : إن العين إذا كانت من ناحية الموق صغيرة الزاوية ، دلَّت على سوء باطن وخبث شمائل . وإذا كان ذلك الموضع كثير اللحم دَلَّ على خبث وفجور. وإذا وقع الحاجب على العين ، دَلَّ على حسد . وإذا انحدر الحاجبان إلى ناحية الصدغين ، دَلاَّ على طبيعة طفل (١١) وأشبهتاها .

والعين المتوسطة فى حجمها ، دالةٌ على [٢٥ب] فطنة ومروءة وحسن خلق . والنائتة ، على اختلاط عقل وجنون . والغائرة ، على يبوسة وسوداوية مزاج . والتى يطول تحديقها لا لطلب (١٢) ، على قحة بحمق . والكثيرة الطرف ، على قحة وقلة ثبات وطيش . والمعتدلة فى الحالين ، على حسن حال ، والكحلاء (١٣) على الخير.

أقول : وينبغى أن تُراعَى البلاد فى هذا كله ، فإن بعض البلاد تقتضى الزرقة ـ كبلاد الصقالبة ـ لشدة البرد ، وبعضها الكحولة ـ كبلاد السودان ـ لشدَّة الحرّ .. وضيق أعين الترك لبرد بلادهم ، فتحتاج إلى كثرة الصيانة عنه . ونتوء أعين السودان ، لفرط امتلاء رءوسهم ، لكثرة تصعُّد الرطوبات إليها . واتساع أعين العرب ، ليبوسة أمزجتهم ، بسبب يُبْس أغذيتهم .

ومن خواص الإنسان أنه يتنفس من أنفه ومن فمه ، وباقى الحيوانات من أنفها فقط . والأنف موضوع بين العينين ، ليكون محروسًا بهما على السواء . وغلظ الأنف جدًّا يدلُّ على غلظ الطبع . وفطوسته تدلُّ على رطوبة الدماغ ، ورقَّته على يبوسة المزاج .

وتحت الأنف ، الفم والشفتان ؛ ويدلُّ غلظهما على رطوبة الدماغ . وغلظ

(١١) العبارة مقروءة بصعوبة بالغة .
(١٢) الكلمة مطموسة بسبب التجليد .
(١٣) يقول ابن النفيس فى معرض حديثه عن أصناف العين :
العين الكحلاء هى الشديدة السواد حتى يُظن أنها مكحلة بالإثمد ولا كحل فيها ، ويقرب منها العين المليحة ، وهى الشديدة السواد جداً (المهذب فى الكحل المجرب ص٥٤) .

الشفة [٢٥ب]، إذا كان مع سعة الصدر وكثرة الشعر فيه، دليل على الماليخوليا (١٤). وسعة الفم دليلٌ على الفصاحة، وكذلك طول اللسان ودقته.

وأما كثرة الحديث واتصاله، فتدلُّ على حرارة مزاج الدماغ، وعلى طيش؛ وجرأة اللسان، تدلُّ على قحة. والكلام للإنسان خاصة، وقد أشرنا إلى علَّته فيما مضى.

وإذا بلغ الإنسان الحُلُم، تغيرت نغمته وأرنبة أنفه، يُحسُّ بذلك عند الغمز على طرف الأنف. وكذلك ينبت له شعرٌ على عانته وإبطه، وذلك من خواص الإنسان دون أكثر ذوات الأربع.

وقوة الأسنان (١٥) وثباتها (١٦) دليلٌ على طول العمر، لدلالة ذلك على شدة اعتناء الطبيعة بتقوية آلات ما هو ضروريٌّ في الحياة (١٧)، وهو الغذاء.. وللإنسان سِنُّ الحلم، ويسمى الناجذ (١٨).

وصِغَر الوجه جداً يدلُّ على المَلَق (١٩)، وعِظَمه جداً يدلُّ على البَلَه، واستدارته جداً ـ مع عِظَم الهامة أو صِغَرها جداً ـ وكثرة لحم الوجه والعنق والرجلين وقِصَرُ الأصابع، دليلٌ على البعد عن الخير. وقلة لحم الوجه، دليلٌ على الذكاء واللطف.

وأما الأذن، فتوسُّط الشعر عليها يدلُّ على جودة السمع. وكبر الأذن [٢٦أ] جداً وانتصابها، يدلُّ على حمق وهذيان كثير.

وتحت هذه الأعضاء، العنق. وحِلَقُ الرأس، لغلظ العنق. والعنق البارزة إلى

---

(١٤) يقول ابن النفيس:
الماليخوليا، هو تشوُّش الفكر والظنون إلى الفساد والخوف، ويبتدىء بسرعة غضب وحب الخلوة، وخوفٍ مما لا يُخاف منه عادة؛ فإذا استحكم قويت هذه الأعراض، والمستعد له، مَنْ قلبه حارٌّ، كثير شعر الصدر والبدن، ودماغه رطب، غليظ الشفتين، ألثغ. وعروضه للرجال أكثر، وللنساء أفحش (الموجز في الطب ص ١٣٩)

(١٥) الكلمة في هامش الصفحة.

(١٦) باهتة جداً في الأصل.

(١٧) في الأصل؛ الحيوة.

(١٨) النواجذ: الاضراس التي تلى الأنياب؛ ويُسمى ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل (لسان العرب ٣ / ٥٨٤).

(١٩) المَلَق: الود والترفق واللطف الشديد. وفي الحديث النبوى «ليس من خلق المؤمن الملق» وهو الزيادة في التودُّد والتضرُّع فوق ما ينبغي (لسان العرب ٣/ ٥٢٧).

قدام، مع ضيق الصدر(٢٠) وتجنُّح الأكتاف، دليلٌ على الاستعداد للسُّلّ. وتحت العنق: الصدر والأكتاف (٢١).. ومن خواص الإنسان، اتساعُ صدره وعرض ما بين كتفيه.

واليدان (٢٢) معلقتان بالكتفين، وطول أصابع اليدين -مع دِقّتها- دليلٌ على لطف الطبع، وقِصرها دليلٌ على صغر الكبد.

وإفراط سعة الصدر، دليلٌ على الشجاعة؛ وكذلك عظم الأعالى مع دقة الأسافل. ومن خواص الإنسان (٢٣)، أن ثدييه على صدره (٢٤).

وتحت الصدر، البطن ثم العانة. وعظم البطن جداً -مع قصر القامة- وغلظ الأصابع، وخصوصاً مع إفراط لحم الرأس، دليلٌ على عدم الاستعداد للعلوم البتة. وخصوصاً إذا كان صاحب ذلك مبتلى بطول (٢٥) الوجه.. وغليظ العنق، لحيم القدمين والساقين.

ومن خواص الإنسان أنه لا يتزايد صياحه عند الهيجان (٢٦)، منعاً للفساد. وإذا جامع الصبى أو مَن يحبُّ، قوى شبقهم جداً، حتى يلتذوا بذكر الجماع. وإذا أفرط القريب العهد بالبلوغ فى[٢٦ب] الجماع، أسرع نبات لحيته، وجفَّت رقة وجهه، وزالت (٢٧) عنه نضارة الصِّبا، وقَحُلَ جلده، وكَرَّ عليه الشعر، وتغيَّر صوته لجفاف حنجرته.

وإذا جومع الصبى، قلّ حياؤه. والمغالاة فى محبة إتيان الغلمان، مما يعوِّد الطبيعة الالتذاذ بالرجال، مما يوجب الأبنة.. وخصوصاً إذا حصل العجز عن إتيانهم.

---

(٢٠) مطموسة فى الأصل.
(٢١) باهتة جداً فى الأصل.
(٢٢) فى الأصل: واليدين
(٢٣) الكلمة غير مكتملة فى الأصل بسبب التجليد.
(٢٤) العبارة غير واضحة فى الأصل... وقوله «ثدييه على صدره» لاختصاص الإنسان بذلك، حيث تتدلى أثداء الحيوانات الأخرى من بطونها. لكن الإنسان لا يختص وحده بذلك، فالقردة مثلا تشاركه فى كون الأثداء على الصدر!
(٢٥) غير واضحة فى الأصل.
(٢٦) يقصد، عند التهييج الجنسى.
(٢٧) فى الأصل: وزال

ومَن أكثر من إتيان زوجته فى الدُّبُر، لا يأمن أن يأتيه ولدٌ فيه أبنة .

وكثرة الجماع تعظِّم الذكر، وتركه يضمره ، و يضعف الشهوة والانتشار وانتباه النفس له . والاستمناء باليد ، يُضعف الشهوة والانتشار، و يوجب الغَمّ .. وعِظَم الذكر والمذاكير، يدلُّ على قوة الشبق .

وكثرة لحم الفخذين والساقين ، دليلٌ على مشابهة الأخلاق لأخلاق النساء . وغلظ الساقين دليلٌ على الجبن . ومن خواص الإنسان ، أنه ذو رجلين فقط ، و يلد .. ومن خواصه أيضاً ، أنه يثنى رجليه إلى ما بين يديه ، و يديه إلى جانبيه .

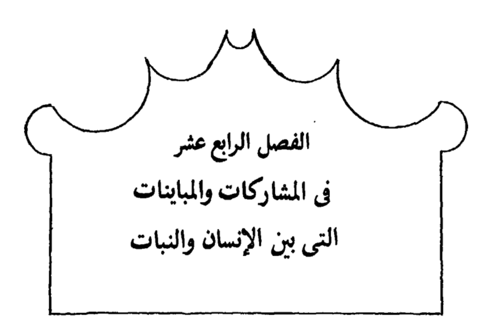
ومن خواصه أيضاً ، أنه يتذكَّر المنسى . والنسيان يغلب فى الشيخوخة . والصبىُّ أسهل حفظاً ، لقلة فكرته . والكهل أصحُّ فكرة ، وأعقل .

والنساء أرقُّ، وأبكى (٢٨) ، وأحسد ، وأغضب ، وأذكر لمحقرات الأمور، وأقوم بالتعهد ، وأكسل ، وأقل [٢٧ب] حماية ، وألحُّ ، وأجزع ، وأوقح ، وأكذب ، وأمكر، وأرخى (٢٩) . والجوارى من النساء يكنّ صفر الوجوه ؛ لقلّة حركتهن ، لاختفائهن .

---

(٢٨) فى الأصل : وأبكا

(٢٩) من هنا نعرف لماذا لم يتزوج ابن النفيس !



الفصل الرابع عشر
فى المشاركات والمباينات التى بين الإنسان والنبات

إن النبات يشارك الإنسان والحيوان ، فى الأفعال والانفعالات الغذائية ، جذباً ، وإحالة له ، وتوريقاً على الأغصان (١) ، وإبانة الفضلة ؛ أما التى يقتصر بعضها على مصلحة النقص فقط ، كالسيالات التى منزلتها منزلة العرق من الحيوان ، والصموغ التى منزلتها منزلة الوسخ ، والمِدّة التى تخرج من الخُرّاجات ؛ أو التى تجمع إلى منفعة النقص منفعة أخرى . وذلك إما التكون مادة لأن يتولّد عنها شخصٌ آخر ـ كالبذر الذى منزلته منزلة المَنِيّ فى الحيوان الذى يلد ، والبيض فى الحيوان البيّاض ـ أو لإمداد (٢) الثمار ، ومنزلتها منزلة اللبن فى الحيوان . لكن منفعة اللبن تغذية شخص آخر من ذلك النوع ، ومنفعة الثمار حفظ البذر وإصلاحه .

والساق للشجر ، بمنزلة عمود البدن ؛ والاغصان بمنزلة الأعضاء الطرفية ؛ والأصول بمنزلة موارد الغذاء ، والورق بمنزلة الشعر ، والخشب بمنزلة العظام ، واللحاء [٢٧ب] بمنزلة الجلد ، واللحاء الذى فى حشو الخشب ، بمنزلة المخ الذى فى العظام (٣) .

لكن يخالف النباتُ الحيوان فى أمور كثيرة : وذلك أنه لا يمكن أن يكون له حِسٌّ ؛ لأنه مركوز فى موضع واحد ، فليس له أن يهرب من الضار ، ولا أن يقرب من النافع ، فيكون الحِسُّ له معطّلاً وضارًّا أيضاً . . وأبعد من هذا ؛ أن يكون له عقلٌ

---

(١) فى الأصل : الأعضاء .
(٢) غير واضحة فى الأصل
(٣) أى تجليد المخطوطة إلى ضياع الحروف الأخيرة من كلمات هذا الموضع .

وفهمٌ وفكرٌ، كما يزعم أنكساغورس (٤) وديمقراطيس (٥) وأنباذقلس (٦) وأشياعهم (٧) .

وإذ لا حسّ ، فلا حركة إرادية ؛ فلا حاجة إلى روح ، فلا حاجة إلى قلب يولّدها ، ولا إلى دماغ يعدّلها ، فلا حاجة إلى خوادمها كالرئة وقصبتها ، والأنف ، والحجاب ، والصدر وأعضائه ، والشرايين .. ولا إلى قحف وأغشية ، وحواس ، وأعصاب ، ونخاع .

وإذ لا حس ، فلا تخيُّل ، ولا توهمٌ ، ولا تذكُّر ؛ لأن هذه تابعة للحسّ أيضاً .. ولا شهوة لأنها تابعة لإدراك النافع

وإذ لا شهوة ، فجذبه الغذاء طبيعياً صرفاً ، يشبه جذب الكبد . فاضطر لذلك إلى موارد كثيرة ، وهى الأصول ؛ بخلاف الحيوان ، فإن وروده للغذاء بوارد ـ وهو الفم ـ لأن جذبه للغذاء إرادى ؛ فلذلك يقرب من كل غذاء يعتقده نافعاً .. وأما النبات فليس له الانحراف عن موضعه [٢٨أ]، ليستبدل الخبيث بالطيب أو الخصب بالقحط .

---

(٤) أنكساجوراس Anaxagoras القلازومينى : آخر فلاسفة إيونيه ، توفى ٤٢٨ قبل الميلاد .. يعد واحداً من البدايات الحقيقية للفلسفة الطبيعية فى اليونان القديمة ، وكان يرى أن الكون بدأ بخليط من البذور Spermata لاحصر لها ثم أضفى عليها العقل Nus النظام ، وعن طريق الامتزاج والانفصال ، تتكون الأشياء فى العالم الطبيعى .

(٥) ديمقراطيس Dimocratis الأبديرى : أشهر الفلاسفة الذريين ، كان لا يزال شاباً إبان شيخوخة أنكساجوراس .. واتخذت نظرية الذرة طابعها الفلسفى الأخير على يد ديمقراطيس ، فالوجود عنده يتألف الملاء pleres, stereon والخلاء cenon, manon و ينقسم الملاء إلى أجزاء تسمى الذرات atomon ، وهى أجزاء لاتتجزأ، ويحدث التغير فى الكون من اجتماع الذرات وافتراقها .

(٦) أنباذُ قليس Anpadoclis الصقلى : فيلسوف يونانى مشهور، تميز بنزعة صوفية شرقية ، توفى ٤٣٥ قبل الميلاد .. وكان يقول : إن عناصر الوجود أربعة (الهواء ــ النار ــ التراب ــ الماء) وإن القوى المحركة اثنتان : المحبة philotes والقهر neicos ، وجميع الموجودات تتركب من هذه العناصر التى لاتتغير ولا تنعدم .

(٧) بخصوص آراء الفلاسفة السابقين وأتباعهم ، يمكن الرجوع إلى الفصل الذى عقده جورج سارتون لتاريخ الفلسفة والعلم حتى وفاة سقراط (تاريخ العلم ــ الفصل العاشر) أما عن معرفة المسلمين بتراثهم الفلسفى، والصورة الملفقة التى انتقلت إلى العالم الإسلامى عنهم ، فيمكن الرجوع بصددها إلى كتاب الدكتور النشار (نشأة الفكر فى الإسلام ، الجزء الأول ص ٨٨ ومابعدها)
وعموماً ، فإننا لانجد فى الشذرات الباقية من أعمال أنكساجوراس وديمقراطيس وأنباد قليس ، تلك المعلومة التى ينسبها ابن النفيس إليهم ، بخصوص عقول النبات .

فاضطر إلى تكثير الآلات ؛ ليقوم ما صلح غذاء - مما يجاوزه - مقام ما كان يجاوره من الغذاء ، فاسدًا أو قليلاً .. ولتكون له هذه الأصول ، بمنزلة الأطناب (٨) من كل جانب ، فلا يتهيأ للسقوط .

وهذه الأصول لا يمكن أن تكون أفواهها واسعة جدًا ، وإلاَّ لزم أن تكون غليظة جدًّا ، ولا يمكن أن تنفذ فى الأرض ، فكان يدخلها من الأرضية ، ما لا يصلح للتغذية ؛ فوجب أن تكون أفواهها ضيقة جدًا ، فوجب أن يكون جذبها ، خالص الغذاء وصفاوته ، و يكون رقيقاً لا محالة .

فوجب ألاَّ يحتاج إلى معدة تصغِّر أجزاء الغذاء ، ولا إلى كبد ، ضرورة أن المجذوب من خالص الغذاء وعديم الفضلات ، فيمكن كل عضو إحالة الوارد ، إلى مزاجه .. خصوصاً ولا استحالة إلى مزاج الحيوان (٩) .

وإذ لا حاجة به إلى معدة ، فلا حاجة به إلى كبد ، فلا حاجة به إلى أوردة .. وإذ ما يجذبه من الغذاء عديم الفضلات ، فلا حاجة به إلى سبيل البول والبراز ، ولا إلى أمعاء ، ولا مثانة ، ولا كلى ، ولا مرارة أيضاً .

وإذ (١٠) لا حركة إرادية ، فلا جماع له ، فلا حاجة إلى أعضاء [٢٨ب] التناسل .. وإذ لا أعضاء للتناسل ولا حركة جماعية ، فلابد وأن يكون الشخص الواحد من النبات ، يستقلُّ بتوليد مادة الزرع ، فيكون فيه المبدأ الفاعل والمنفعل ، فلا حاجة إذاً (١١) للسان وإلى تصويت (١٢) .

وأيضاً ، إذ لا حسَّ له ، فلا نوم له ؛ لأنه غور ما من الحسّ . ولا يقظة ؛ لأنها ظهور ما بالحواس .

---

(٨) الأطناب : ماتشدُّ به الخيام من الحبال ، وقيل : هو الوتد (لسان العرب ٢ / ٦١٧)

(٩) يقصد ، استحالة الغذاء فى الحيوان إلى واحد من الأمزجة الأربعة : الدم ، البلغم ، الصفراء ، السوداء .

(١٠) فى الأصل : اذ

(١١) فى الأصل : اذا

(١٢) راجع فيما سبق ، إرجاع ابن النفيس الأصوات إلى الحاجة للجماع والتناسل .

الفصل الخامس عشر

فى ذكر أشياء تشترك فيها الحيوانات أو كثير منها وفى بيانها ؛ بقول مُختصر

قـد اشـترك جميع الحيوان فى أنه حسَّاس حسَّ اللمس ، ومتحرك بالإرادة .. لكن بـعـضـهـا يمكـنـه أن يـتـحـرك حـركـة انـتـقـالية من مكان إلى آخر، وهذا أكثرا لحيوان .. و بعضها ليس له ذلك ، بل ينقبض و ينبسط لدفع المؤذى ، كالإسفنج .

وكـل مـا له دم ، فله قلب وكبد ودماغ ، ودماغه دسم ؛ وما لا دم له ، فلا دسومة لـدمـاغـه . وكـل حيـوان جـلـده صَلِبٌ ، فإن جلده لا يتطيع للطرف ، فخلقت عيناه صلـبة ، كالسرطان (١) . وكل حيوان عيناه لينة ، فإنه يحتاج إلى أن يطرف ؛ ليكون لـه أن يـسترعـيـنـيـه عـن ضـرر الـواردات ؛ لـكـن بعضها يطرف من الجفن الأعلى ، و بعضها من الجفن الأسفل ولبعض الحيوانات غشاء يُغمض به ، كالجوارح .

وأنـف الـفيل ، كاليد فيما يتناوله أو يناله سايسه .. وقد حكى بعض الفضلاء أنه رأس فرساً [٢٩ ب] ، فتح البيطار (٢) فاه بآلة سدَّتْ منخره ، فمات فى الوقت .

وما كان من الطيور لاقِط حَبٍّ فقط ، جُعل منقاره مستقيماً ؛ لأن ذلك أسهل فى اللـقـط ؛ ومـا كان لَكل لحم ، كالجوارح فقط ، جعل منقاره معوجاً ؛ ليكون تشبثه بما يـصـيـده مستحكماً ؛ وما كان غذاه من الحمأة فقط ، جعل منقاره عريضاً ؛ ليكون له

---

(١) السـرطـان Crab : حيـوان بحـرى يـعيش فى البر والبحر، يسمى عقرب الماء ، جيد المشى ، سريع الـعدو ، ذو فكين ومخاليب وأظفار حداد ، صلب الظهر .. وهو بلا رأس ولاذنب ، عيناه فى كتفيه وفى صـدره ، وله ثمانى أرجل . وتوجد منه أنواع : السرطان الناسك ، Hermit Crab والسرطان النهرى ، والـسـرطـان الـبـحـرى (انـظـر : حـيـاة الحيوان للدميرى ١٩/٢ — معجم الحيوان للمعلوف ص ٧٤ ، ٧٥)

(٢) الـبـيـطـار ، الطبيب البيطرى المعالج للحيوانات . والمقصود من كلام ابن النفيس ، أن الفرس يتنفس من منخره فقط ، فلما سدّه البيطار ، مات فى الحال .

كالمسحاب فى سحبه الطين ؛ وما كان غذاه من الأنهار والمياه التى ليس لها عمق مفرط ، فقد طُوِّل منقاره ورجلاه ليمكنه المشى فيها ، والتصييد مما فى قعرها بطول منقاره ؛ وما كان غذاه (٣) من عمق المياه ، فقد خُلق صغير الجثة ؛ ليكون غوصه أسهل ـ وذلك كالبَطّ الصغار ـ وما كان غذاه من ظاهر الماء ، فيحتاج إلى قوة فى السباحة ، فقد خُلق لأكثره بين أصابع رجليه غشاءٌ ؛ ليكون دفعه الماء عند السباحة أقوى .

وكل حيوان ، فإنه يحرّك عند المضغ فكّه الأسفل ، إلاّ التمساح [٢٩ ب] .. وذلك لأنه من جملة الحيوانات الكاسرة ، و يداه تضعف عن مسك الصيد لصغرها ، فتُدُورك ذلك بتقوية العضو ، بأن جعل المتحرك بالإرادة عند البعض ، هو المتحرك لذلك بالطبع .

وكل حيوان له رئة ، فإنه يتنفس الهواء . والسمك يمج الماء من أذنيه ، و ينفذه من عرقين إلى قلبه ، ثم يخرجه ، ليعدل بذلك حارّه الغريزى (٤) .

وكل حيوان يصيح ، فله حنجرة . وكل حيوان فأسنانه صفٌّ واحدٌ ـ إلاّ ما قيل إن سبعاً بالهند لأسنانه ثلاثة (٥) صفوف ـ وكل حيوان لا أسنان له فى الفك الأعلى (٦) ، فإن لبنه ودمه يُحمدان . وكل حيوان يلد حيواناً ، فله آذان خلا الدلفين (٧) والأفعى . وكل ما له آذان ، فهو يحركها ، خلا الإنسان ـ إلاّ أفرادمنهم

---

(٣) فى الأصل : خداه

(٤) يقول ابن النفيس فى معنى الحارّ الغريزى :
الحارّ هو ذو الحرارة ، وهو الجسم الحامل لها . وهذه الحرارة مخالفة لغيرها من الحرارات بالحقيقة ، وإنما يقال لها الحرارة باشتراك الاسم .. وكلما ازدادت الحرارة الغريزية ، ازدادت الأفعال الطبيعية قوة ، و ينتقل البدن إلى الشيخوخة إذا صار الحارّ الغريزى قليلاً جداً (شرح فصول أبقراط ص١٢٢ وما بعدها) .

(٥) فى الأصل : ثلثة

(٦) فى الأصل : الأعلا

(٧) الدلفين (الدرفيل) حيوان بحرى ليس فى دواب البحر ما له رئة سواه ، ربما ظهر على وجه الماء كأنه ميت وهو يلد و يرضع ، ولا يلد إلاّ فى الصيف . ومن طبعه الأنس بالناس ، وإذا ظفر بالغريق كان أقوى الأسباب فى نجاته ؛ لأنه لا يزال يدفعه إلى البر حتى ينجيه ، ولا يؤذى أحداً ، ولا يأكل إلاّ السمك (حياة الحيوان ١/ ٣٠٦ ، ٣٠٧) .

يحركونها - وكل حيوان له حافر فليس له قرن ، إلا حمار الكَرْكَنْد (٨) فإن له حافراً وقرناً . وكل ما له قرن ، فله قرنان ، إلا ذلك الحمار ، فله قرن واحدٌ عظيم بين عينيه . وكل ما له قرن ، فإن قرنه ثابت ، إلا الأيل (٩) فإنه يلقى قرنه .

ولبعض السمك ثمانية آذان . والسمك لا عنق له ، ولا أنثيان ، ولا منكح .. وكل حيوان [١٣٠أ] ، فإن صدره ضيق ، إلا الإنسان ، والقرد والفيل قريبان من الإنسان فى ذلك .. وكل حيوان ، فإن أعضاءه المتيامنة تشبه المتياسرة وتساويها فى النوع ، وأعضاءه (١٠) العلوية تشبه السفلية ، ولا تشاركها فى النوع .. وأما الخلفية والأمامية فالشبه فيهن قليل .

وكل حيوان ، فعدد عينيه وأذنيه وأطرافه زوج ، إلا صنف من السمك يعرف فى المغرب بحوت موسى - عليه السلام - فإنه مقسومٌ نصفين فى الطول .

وكل ذوات الأربع ، فإن مخرج بولها غير مخرج برازها . وكل ما له مثانة ، فله أمعاء ولا ينعكس . وكل حيوان يبيض ، فلا كلية له ولا مثانة . وكل حيوان لا دم له ، فلا ثرب (١١) له ولا شحم .

ومخرج البول من كل حيوان ، مقابل لمدخل الغذاء ، وكل حيوان فعدد رجليه زوجٌ ، ليتعادل الثقل .

---

(٨) هو حيوان من ذوات الحافر عظيم الجثة قصير القوام غليظ الجلد ، يعرف اليوم باسم وحيد القرن ، أما كلمة (الكَرْكَنْد) فهى مقلوب اسمه الأصلى (الكَرْكَدَن Rhinoceros) وأول من ذكر هذا الحيوان ، اكيتسياس اليونانى ، وسمّاه الحمار الأبيض . ثم ذكره أرسطو وسمّاه الحمار الهندى ، وقال عنه « لم نر فى ذوات الحافر ماله قرنان ، لكن توجد حيوانات قليلة جمعت بين الحافر والقرن ، منها الحمار الهندى » وسمى هذا الحيوان بعد أرسطو بالمونوكيروس أى وحيد القرن ؛ فذكره بلنيوس واليانوس الرومانيان بهذا الاسم . وقال عبد الله بن جبريل بن بختيشوع فى كتابه عقد الجمان : « الكركند ، العرب يسمونه الحريش والسريانيون يسمونه ريما » . وهو فى كتاب الحيوان للجاحظ (كركدن) وفى حياة الحيوان للدميرى (كرنكد) وفى حياة الحيوان للدميرى (كركند) .. راجع : حياة الحيوان ٢ / ٣٧٢ ، معجم الحيوان ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٩) الايل ، حيوان شبيه بالبقر الوحشى ، لا تنبت له قرون إلا بعد مضى سنتين من عمره ، فإذا نبت قرناه نبتا مستقيمين كالوتدين ، وفى الثالثة يتشبعان ، ولا يزال التشعب فى زيادة إلى تمام ست سنين ، فحينئذ يكونان كالشجرتين فى رأسه . ثم بعد ذلك يلقى قرنيه فى كل سنة مرة ، فينبتان مرة أخرى (حياة الحيوان ١ / ٩٨)

(١٠) فى الأصل : أعضاؤه !

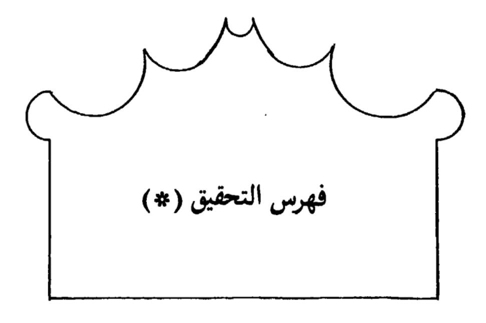
(١١) الثرب ، شحم رقيق يغطى الأمعاء (لسان العرب ١ / ٣٥٢) .

وقد تتباين الحيوانات بالأعضاء، وذلك التباين إما فى نفس العضو أو فى حاله . والتباين فى نفس العضو، إما فى عضو مفرد أو مركب .. كما أن للفرس ذنباً وليس للإنسان ، وإن كانت أجزاؤه (١٢) ، وهى اللحم [٣٠ب] والعظم والعصب والشعر، موجودة فى الإنسان أيضاً . وإما فى عضو مفرد ، مثل أن السلحفاة لها صدف يحيط بها ، وليس للإنسان .

وأما التباين فى مثال العضو، فإما بمقداره ، مثل أن أعين البوم كبيرة جداً وأعين العُقَاب (١٣) صغيرة ، أو بعدده مثل أن بعض الحيوان له رجلان فقط ، و بعضها له أربعة ، و بعضها ثمانية ، و بعضها كثيرة جداً كالدود الذى يكون عند الجرار والخوابى .. وإما بموضعه ، مثل أن ثدى الإنسان فى صدره ، وثدى الفرس عند سُرّته . وأما فى فعله ، مثل أن أنف الفيل يقوم له مقام اليد ، دون غيره من الحيوانات .

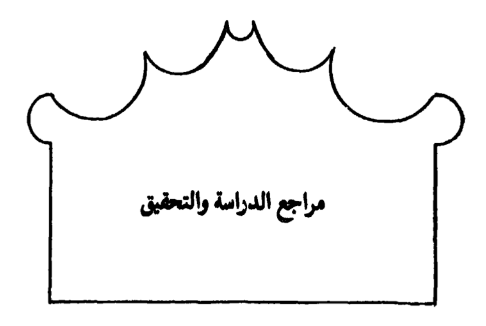
تم كتاب رسالة الأعضاء بحمد الله وحُسن توفيقه
وذلك فى رابع شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث
وسبعين وستمائة أحسن الله خاتمتها

(١٢) فى الأصل : أجزاه .
(١٣) العُقَاب Eagle Aquila : طائر حاد البصر سريع الطيران ، يسميه العرب « الكاسر » وهو من أعظم الجوارح ، قوية المخالب ، مُسَرْوَلَةٌ ـــ أى فى ساقيها ريش (حياة الحيوان ٢/ ١٢٦ ـــ معجم الحيوان ص٩٢) .



فهرس التحقيق (*)

(*) الارقام الواردة هنا تشير إلى موضع شرح المفردات بالهامش .


مراجع الدراسة والتحقيق

أولاً ــ المطبوعات :

١ - **ابن أبي أصيبعة :** عيون الأنباء في طبقات الأطباء (منشورات دار الحياة ــ بيروت) .
٢ - **ابن تَغْرى بَرْدى :** النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨) .
٣ - **ابن حجر العَسْقلاني :** الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (حيدر آباد الدكن ١٣٥٠ هـ) .
٤ - **ابن سينا :** القانون في الطب (طبعة بولاق) .
٥ - **ابن سينا :** الأرجوزة ، تحقيق د/ محمد زهير البابا (مطبوعات معهد المخطوطات العربية ــ الكويت ١٩٨٦) .
٦ - **ابن الصيرفي :** الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة ، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد (الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠) .
٧ - **ابن العماد :** شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس ــ الأزهر ١٣٥١ هـ) .
٨ - **ابن القفطي :** إخبار العلماء بأخبار الحكماء (دار الآثار ــ بيروت) .
٩ - **ابن كثير :** البداية والنهاية (مطبعة السعادة ــ القاهرة ١٣٥٨ هـ) .
١٠ - **ابن منظور :** لسان العرب (دار لسان العرب ــ بيروت) .
١١ - **ابن النفيس :** الرسالة الكاملية ، تحقيق / عبد المنعم محمد عمر (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة) .
١٢ - **ابن النفيس :** الموجز في الطب ، تحقيق / عبد الكريم العزباوى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة) .

١٣- **ابن النفيس :** المهذب فى الكحل المجرب ، تحقيق د/ محمد ظافر الوفائى ، د/ محمد رواس قلعة جى (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الرباط) .
١٤- **ابن النفيس :** شرح تشريح القانون ، تحقيق د/ سلمان قطايه (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩) .
١٥- **ابن النفيس :** شرح فصول أبقراط ، تحقيق د/ يوسف زيدان ، د/ ماهر عبد القادر محمد (الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠) .
١٦- **أحمد عيسى :** تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (دار الرائد العربى ـ بيروت) .
١٧- **أحمد عيسى :** معجم الأطباء (دار الرائد العربى ـ بيروت) .
١٨- **بروكلمان :** تاريخ الأدب العربى ، ترجمة لفيف من الأساتذة (دار المعارف ١٩٧٧) .
١٩- **بول غليونجى :** ابن النفيس (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ أعلام العرب) .
٢٠- **التهانوى :** كشاف اصطلاحات الفنون (كلكتا ١٨٦٢ ميلادية ـ دار قهرمان ، استانبول) .
٢١- **الجاحظ :** الحيوان (دار مكتبة الهلال ـ بيروت) .
٢٢- **حاجى خليفة :** كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (د ر سعادت ـ المند ١٣١١هـ) .
٢٣- **الدُّميرى :** حياة الحيوان الكبرى (دار إحياء التراث العربى ـ بيروت) .
٢٤- **الذهبى :** سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة ـ بيروت) .
٢٥- **الزَّبيدى :** التكملة والذيل والصلة (مجمع اللغة العربية ـ القاهرة) .
٢٦- **الزركلى :** الأعلام (طبعة بيروت) .
٢٧- **زكى نجيب محمود :** المعجم الفلسفى ، وضعه لفيف من الأساتذة (مجمع اللغة العربية ـ القاهرة) .
٢٨- **سارتون :** تاريخ العلم ، ترجمة لفيف من الأساتذة (دار المعارف ـ القاهرة) .
٢٩- **سامى حمارنه :** فهرس مخطوطات الظاهرية ، الطب (دمشق ١٩٦٩) .
٣٠- **السُّبكى :** طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية ـ القاهرة) .
٣١- **السُّيوطى :** حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (بولاق) .

٣٢- **صَاعد الأندلسى :** طبقات الأمم ، تحقيق / لويس شيخو (بيروت ١٩١٢) .
٣٣- **القَلْقَشَنْدى :** صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (دار الكتب الخديوية ــ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هـ) .
٣٤- **طَاشكُبرى زاده :** مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مراجعة وتحقيق / كامل بكرى (دار الكتب الحديثة ــ القاهرة) .
٣٥- **على مبارك :** الخطط التوفيقية (طبعة بولاق) .
٣٦- **عمر كَحَالة :** معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العبى ــ بيروت) .
٣٧- **عيسى المعلوف :** معجم الحيوان (دار الرائد العربى ــ بيروت) .
٣٨- **المقريزى :** الخطط ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠ هـ) .
٣٩- **المناوى :** التوقيف على مُهمات التعاريف ، تحقيق د/ عبد الحميد صالح حمدان (عالم الكتب ــ القاهرة) .
٤٠- **د/ ماهر عبد القادر:** مقدمة فى تاريخ الطب العربى (دار العلوم العربية ــ بيروت ١٩٨٨) .
٤١- **د/ النشار:** نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (دار المعارف بمصر) .
٤٢- **النُّعيمى :** الدارس فى تاريخ المدارس ، تحقيق / جعفر الحسنى (مكتبة الثقافة الدينية) .
٤٣- **ياقوت الحموى :** معجم البلدان (دار صادر ــ بيروت) .
٤٤- **يوسف خيَّاط :** معجم المصطلحات العلمية والفنية ، ملحق بلسان العرب (دار العرب ــ بيروت) .
٤٥- **د/ يوسف مراد :** الفراسة عند العرب وكتابة الفراسة لفخر الدين الرازى (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

ثانيًا ــ المخطوطات :

٤٦- **ابن النفيس :** شرح كتاب أبيذيميا (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٨٣ طب طلعت) .
٤٧- **ابن النفيس :** شرح كليات القانون (مخطوط مكتبة برلين رقم ٩٠ إم إف ٦٢٧٣) .

٤٨- **ابن النفيس :** المختصر فى علم أصول الحديث (مخطوط دار الكتب رقم ٢٠٩ / مجاميع) .
٤٩- **ابن النفيس :** الشامل فى الصناعة الطبية ، المقدمة (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٦٠٥٧ / ل) .
٥٠- **ابن النفيس :** الشامل فى الصناعة الطبية ، كتاب اللام (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٦٨١ / طب) .
٥١- **ابن النفيس :** شرح تقدمة المعرفة (مخطوط بلدية الإسكندرية رقم ١٥٤٧٦ ح / تصوف) .
٥٢- **الدخوار:** شرح تقدمة المعرفة (مخطوط الإسكندرية رقم ٣٤٢٠ ح / تصوف) .
٥٣- **العمرى :** مسالك الأبصار فى ممالك الامصار (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٩ / م تاريخ) .

ثالثاً ــ المراجع الأجنبية :

54- Brockelmann:Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden 1934.
55- Max Myerhof: IBN an- Nafis and his Theory of the Lesser-Circulation, Isis XXII, 1935
56- Medical Dictionary, Ed 21.

□ فهرس المحتويات □

أعمال الدكتور/ يوسف زيدان

أولاً ــ المؤلفات :

١ - عبد الكريم الجيلى ، فيلسوف الصوفية (الهيئة المصرية العامة ــ أعلام العرب) .

٢ - الفكر الصوفى عند عبد الكريم الجيلى ؛ دراسة مقارنة (الطبعة الأولى : دار النهضة العربية ــ بيروت)

٣ - الطريق الصوفى ، وفروع القادرية بمصر (دار الجيل ــ بيروت) .

ثانيًا ــ الدراسة والتحقيق :

٤ - المقدمة فى التصوف ، لأبى عبد الرحمن السُّلَمى (مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة) .

٥ - قصيدة النادرات العينية ، لعبد الكريم الجيلى ــ مع شرح النابلسى (دار الجيل ــ بيروت) .

٦ - ديوان عبد القادر الجيلانى (مؤسسة أخبار اليوم ــ القاهرة) .

٧ - ديوان عفيف الدين التلمسانى (مؤسسة أخبار اليوم ــ القاهرة) .

٨ - شرح فصول أبقراط ، لابن النفيس (دار العلوم العربية ــ بيروت) ، (الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة) .

٩ - رسالة الأعضاء ، لابن النفيس (الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة) .

١٠ - المختصر فى علم الحديث النبوى ، لابن النفيس (الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة) .

ثالثاً ـ تحت الطبع :

١ ـ عبد القادر الجيلانى ، باز الله الأشهب (تأليف) .

٢ ـ شرح الفتوحات المكية ، لعبد الكريم الجيلى (دراسة وتحقيق) .

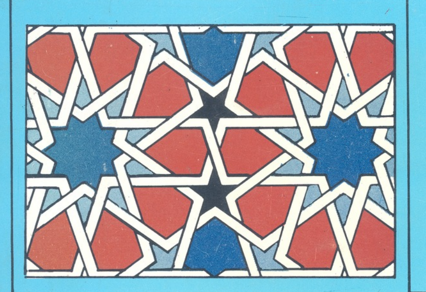
٣ ـ الكهف والرقيم ، لعبد الكريم الجيلى (دراسة وتحقيق) .

٤ ـ المختار من الأغذية (دراسة وتحقيق) .

٥ ـ شرح كليات القانون ، لابن النفيس (دراسة وتحقيق) .

٦ ـ معجم مصطلحات ابن النفيس الطبية .

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢



The Library of
IBN An-NAFÌS:

Risalet AL A'Ada'a

(An Essay on Organs)

Study and Critical Edition
BY
Dr. Youssef Zeedan



AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH